علي فهمي خشيم

الحاجية

من ثلاث رحلات في البلاد الليبية



الحاجية

من ثلاث رحلات في البلاد الليبية

جمع وتحقيق

الدكتور
علي فهمي خشيم

الناشر
مجمع اللغة العربية
شارع البلدية – ص . ب : 551
طرابلس _ ليبيا

الطبعة الثانية

1376و.ر. (2008)

اسم الكتاب : الحاجية " من ثلاث رحلات في البلاد الليبية"

جمع وتحقيق : د . علي فهمي خشيم

الناشر : مجمع اللغة العربية - طرابلس

الطبعة الثانية 2008

التنضيد والتنفيذ : جمعة الترهوني

رقم الإيداع : 2008/827

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9959-9575-3-5



عبد الرؤوف الدوبي



مقدمة

ظلت المكتبة العربية تفتقر طويلاً إلى المراجع والمصادر عند التعرض لليبيا؛ تاريخاً ومجتمعاً واقتصاداً وحياة بصفة عامة . والحق أن أول شروط البحث في شيء هو توفر المادة التي يستمد منها الباحث المعلومات الضرورية عن هذا الشيء حتى يبنى من بعد هذا ما يراه من نتائج عليه . وهذا ما تنبغي العناية به في هذه المرحلة- على الأقل- بالنسبة للبلاد الليبية . كي يمكن بعدئذ القيام بدراسات دقيقة وفاحصة لكل منحى من مناحي الحياة في هذه البلاد . وإن كل خطوة في هذا السبيل لتعتبر إسهاماً مرغوباً فيه لتوفير المادة المطلوبة وجعلها في متناول أيدي الدارسين ، بطبعها ونشرها على أوسع نطاق مستطاع . بدلاً من أن تلبث حبيسة المكتبات الخاصة والأدراج .

من هنا رأيت أن أقدم على نشر بعض ما تيسر لي الإطلاع عليه ، ولم أر من أقدم على نشره، من ثلاث رحلات قام بها ثلاثة من رجال المغرب، سجل فيها - كل بطريقته الخاصة- ما رأى أنه يستحق التسجيل عن هذه البلاد وهو في طريقه إلى بيت الله الحرام ، تفصل بين أولهم وثالثهم مدة تقرب من قرن من الزمان .

لم يكن من المعهود-إلا فيما ندر-أن يتهيأ رجل للسفر ويشد رحاله إلى بلد بعينه ، يقصده رغبة في معرفة أحواله ، فقد كان السفر قطعة من العذاب حقاً ، ومن هنا كانت زيارة بيت الله الدافع الأقوى إلى أن يأخذ المرء نفسه بعناء الرحيل ، وينسى في سبيل هذه الغاية كل نصب ويهون عليه كل صعب . وكان الأمر أوضح ما يكون بالنسبة لأهل المغرب ،

أدناه وأوسطه وأقصاه ، وكان العلماء منهم ، والمهتمون بأحوال غيرهم من الناس وتسجيل ما يشاهدونه من مظاهر ويلاحظونه من ظواهر، وإعلام سواهم أو من يأتي بعدهم بحالة الطريق وتبيان مسالكه وصعوباته ومهالكه ، يحرصون على تسطيره في ما يسمى "الرحلة" وقد يطلق أحدهم إسماً يختاره على هذه "الرحلة" ، بيد أنها تشتهر عادة باسم "رحلة فلان" أو "الرحلة الفلانية" .

أما الطريق الذي يسلكونه- معروفة دروبه ومعالمه- فيبدأ من ساحل المحيط الأطلسي غرباً وينتهي عند مكة ويثرب ، يقطعه الحجاج في شهور متطاولة على ظهور الإبل ، يظعنون وينزلون فيها مئات المرات . وهم في أثناء هذا قد يتخذون طرقاً مختلفة ، تشق الصحراء مارة بالواحات اختصاراً للطريق بالسير في خط يكاد يكون مستقيماً ، أو تحاذى الساحل طلباً للعمران ومواطن المدنية والاستقرار ، وهذا الأخير هو الذي صار فيما بعد طريق الحاج أو كما يعرفه أهل ليبيا : " **الحاجية** " وهو ما اتخذته عنواناً لما بين يديك .

والذي بين يديك الآن أجزاء مستخلصة من رحلات ثلاث . أقول "أجزاء" لأنها في الأصل رحلات كاملة ، منذ يوم الرحيل إلى يوم العودة الحميدة ، غير أنني انتزعت من كل منها ما يتصل بليبيا وضممته إلى سواه ، لتشكل جميعها صورة واحدة متكاملة ، ذلك لأن نشرها كلها يحتاج إلى جهد كبير ومئات من الصفحات .

أما **الأولى** فهي " **الرحلة الناصرية** " قام بها أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي المتوفى عام (1128هـ) ، وهو ابن منشيء الطريقة الناصرية الشاذلية . والمعروف أن لابن ناصر رحلتين مسجلتين ، الأولى عام (1096هـ) ، والثانية عام (1121هـ) وهي هذه المنشورة بعد . وقد اعتمدت في تحقيقها على نسختين: إحداهما توجد بالمكتبة الوطنية التونسية برقم (10030) وهي المرموز لها بحرف(ت)- والأخرى نسخة من طبعة فاس الحجرية عام (1320هـ) ، توجد بدار الكتب القومية بالقاهرة تحت رقم (818) جغرافيا- وهي المرموز لها بحرف (ف) .

أما الثانية فهي " **الرحلة المنالية** " لعبد المجيد بن علي الحسني المنالي الزبادي وقد سماها "بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام" قام بها ما بين عامي (1158-1159هـ) ، والنسخة المعتمدة بخط يده ، انتهى من كتابها في 19 ربيع الثاني سنة (1160هـ) مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

وأما الثالثة فهي "**الرحلة الفاسية** " لأبي العباس أحمد بن محمد الفاسي قام بها ما بين عامي 1211-1212هـ . والنسخة المنقولة هنا توجد في مكتبة الأسكندرية برقم 3578 جـ .

وهذه الرحلات الثلاث تقدم- في مجموعها- معلومات غزيرة عن طريق القوافل الساحلي وعن محطاته ومواطن نزوله ، وتثبت بعض ما يرصده الرحالة من حوادث تاريخية شاهدها هو نفسه- كما هو الحال مثلاً في وصف ابن ناصر لحصار طرابلس وضربها بالقنابل أو وصف الفاسي لتطورات الوضع السياسي بها تحت حكم آل القرمانلي- أو سمع بها ، أو نقلها عن رحالة قبله . وإذا كان المجتمع والحياة العامة لا تثير الاهتمام الكثير لدى أي منهم ليكتب عنهما بتطويل ، فإن من الممكن استخلاص صورة عن الوضع الاجتماعي والثقافي والفكري من خلال السطور والملاحظات المنشورة هنا وهناك ، ومن خلال أحاديث الرحالة عمن كان بالبلاد من العلماء والفقهاء والمتصوفة ، وعن ملاقاة هؤلاء لركب الحجاج واستقبالهم لهم أينما حلوا .

وقد يصيب القارئ الحديث الضيق بهذا التكرار في الأسلوب ، من ظعن ونزول وسقى بهائم واستطراد في الوصف ، واقتباس- بل نقل فقرات وصفحات كاملة من رحالة سابقين ، ولابد لنا أن نعتذر عن هؤلاء السادة ، بل نبدي إعجابنا بصبرهم الجميل وقوة احتمالهم وحرصهم على تسطير هذه الأوراق المفيدة ، وحين نتصور الرتابة القاتلة في مسيرتهم الطويلة ، تمد الإبل أعناقها وتخبط الأرض بأخفافها وتمضي في طريقها

بطيئة متأنية ، لكن إلى غاية محددة معروفة ، لا نجد سوى إكبار أن يهتم رجل ما بغير ذاته ، فيخلف لنا هذا التسجيل النافع . أما هذا "الاقتباس" من الرحالة السابقين- كما يفعل ابن ناصر في نقله من رحلة أبي سالم العياشي وكما ينقل الفاسي من ابن ناصر نفسه- فهو ، في ما أرى ، مزيد من التوثيق والتأكيد لما يقدم من معلومات وتصحيح في بعض الأحيان ، أو هو احترام لرأي السابقين ، رأي العين ورأي الفكر على حد سواء ، ثم لم لا نتصور أن كل رحالة جديد كان يتخذ من سجل من سبقه دليلاً يهتدي به في طريقه ويرجع إليه ليتعرف به على السبيل الذي يسلكه ؟

وماذا ننتظر من قاصد بيت الله الحرام ، عابر الفيافي والقفار إليه . سوى الحديث عن شيئين متصلين به كل الاتصال : الماء وأولياء الله الصالحين ؟

من هنا امتلأت الرحلات- حتى حافتها- بالكلام عن الماء ، ومواطنه ، ومعاطنه ، وغدرانه ، في كل صفحة تقريباً منها. وبالكلام عن الأولياء والصالحين ، ممن قابله الرحالة حياً أو زاروا قبره ميتاً وتبركوا به ، والتمسوا نفحات بركته الطيبات .

وإلى جانب هذا وذاك ، يهتم صاحب الرحلة الاهتمام كله بمسألة شخصية أو هامشية ؛ من مثل أخذ الطلق أمة ابن ناصر وعنايته بذبح عقيقة للمولود الجديد ، أو ضياع ابنه والبحث عنه ليلاً بالفوانيس ، أو تسجيل الفاسي لغضب أمير الركب على أحد أتباعه وحلق نصف لحيته ، ولا ينسى أن يثبت منظر أربعين قصعة من البازين يقدمها إلى الحجاج كرام القوم عند ضريح سيدي بو عصيدة !

ومروراً بالمعاطن والمدن- ما عمر منها وما خرب- يقابل الأعراب قافلة الحجاج ويتبادلون معهم البضائع والطعام ، وتقوم تجارة يجد فيها كل طرف ما يحتاج إليه ويتسوق كل ما يريد ، وصور كثيرة عن مشاق الطريق وأخطارها ، وتعبير عن شدة السفر في الصحراء القاحلة ، والفرح

بمواقع الحياة والعمران ، إنها أشبه بيوميات تبين عن الاستعداد للرحيل ، والقيام به ، وكل ما يصادفه المسافر في ذلك الزمان.

وقد بدا لي- وأنا أعد هذه الأجزاء للنشر - أن أضع هوامش لأسماء الأعلام والمعالم التي وردت فيها ، ثم رأيت أن هذا الأمر سيستغرق الكثير من وقتي ووقت القارئ كذلك ؛ لكثرة هذه الأسماء ، وتكرارها في بعض الأحيان ولأن أساتذة كراماً سبقوا فاهتموا بتحقيق بعض الرحلات والتراجم ومواقع البلدان ، فاستعنت بهم، وأرجو القارئ أن يفعل مثلى ؛ فيعود إلى ثبت المراجع حين يبحث عن علم أو ترجمة ، فيزداد إطلاعاً على ما يريد ، ومن هذه الأسماء- لأعلام أو مواقع- ما اختلف فيه . ومنها ما اندثر ونسى ، وهي في جملتها ، تحتاج إلى من يتابعها بالتحقيق والتدقيق من المتخصصين في الجغرافية والتاريخ ، وقد بذلت جهدي لمعرفة الحق فيها ووجه الصواب .

وكما حدث بالنسبة للأعلام ، فإني لم أشا أن أغرق القارئ بحواشي تصويب الأصل ، سواء في اللغة أو الكتابة ، مما يقع كثيراً على أيدي النساخ ، واكتفيت بتصحيح الخطأ دون التنبيه إليه في مواطنه ، ثقة مني بأن هذا عمل لا طائل من ورائه- اللهم إلا حين أرى ضرورة التنبيه خشية التباس الأمر ، وجاء هذا في الغالب عند ذكر بعض الأسماء أو سقوط عبارة وإضافتها من نسخة أخرى ، وبخاصة في الرحلة الناصرية . وإنما الأعمال بالنيات ، والسلام .

طرابلس 1974/6/29م

علي فهمي خشيم

1

مِنَ الرِّحلةِ النَاصِريّة

مِنَ الرِّحلةِ النَاصِريّة
لأبي العبّاس أحمدِ بْن محمّدِ بن نِاصِر الدّرعي
(قام بها عام 1121-1122 هـ)

... ثم ظعنّا منه يوم الخميس ؛وسار معنا سيدي علي الفرجاني أميالاً ، ورددناه لما بلغني سليمان مملوك أخي وأخبرني بتخلف ولد أخي محمد بن محمد وراءنا ليبحث لنا عنه ، وجاء به ولحق بنا بالمبيت بمارث[1] ولحق بنا أيضاً سيدي عبدالظاهر بن عمر ، صهر سيدي أحمد بن جابر ، وصحبنا إلى طرابلس ، ونعم الأخ هو.

ثم ظعنّا منه يوم الجمعة ، ونزلنا قبالة أبي غرارة ، ثم منه ونزلنا شرقي نبش الذيب قبل الاصفرار ، وصحبنا أيضاً سيدي (أحمد بن) عبداللطيف[2] ، من أولاد ابن مريم ، وهو من أحبّة سيدي محمد المكني . وتلقّانا المرابط الخير سيدي محمد الصالح الحمروني وأولاده ؛ سيدي عبدالله وسيدي عبد الكريم ، ونعم السيد هو . لم أر في ساداتنا الحمارنة مثله ديناً وسمتاً وعلماً ، وولده السيد عبدالكريم من أجل الطلبة . وأضافنا بغرارة شعير وكبش وغرارة بلح ، تقبل الله

---

[1] في ف: مارات.

[2] في ت: سيدي عبد الطيب.

منه ، وسار معنا إلى القرية التي كانت شرقي زريق وودعناه عند قبة هناك.أخبرني أن صاحبنا من تلامذة الإمام الشهير أبي العبّاس سيّدى أحمد البدوي.وولداه سارا معنا حتى صليّنا الظهر،ورجعنا وبتنا في ابن قردان[1]؛ موضع فيه كثرة السواني وآثار العمارة قد دثرت ، قرب الاصفرار[2]. وأقمنا به يوم الاثنين ، وتسوّقنا أعراب عكارة وأولاد سيدي عبد النبى وأولاد ابن مريم وأولاد نوير. وأتوا بكثرة الإبل ، واشترى الناس ، واشترينا نحن خمسة عشر بعيراً بنحو مائتي ريال وواحد وتسعين ريالاً ونصف ريال.وأضافنا السيد أبو القاسم–عم سيدي أحمد بن عبداللطيف– بحمل قمح وحمل شعير وحملين تمراً وأربعة أوطاب[3] من حليب الإبل وأربع شياه ، كثّر الله خيره وأدام عليه نعمه.وهو صهر سيدي أحمد المكني ، ماتت عنده أخته . وأودعنا عند سيدي أحمد بن عبد اللطيف سبعة من الإبل ، وأوصيته أن يأخذ الذي عند العكاري فيكون ثامناً ، وواحد للحسين بن أحمد وناقة للحاج أحمد سباطة ، ومات لنا بعير بابن قردان .. تقبّله الله .

ثم ظعنّا يوم الثلاثاء ونزلنا غربي برج الملح ، ثم منه يوم الأربعاء ونزلنا بين الزوارتين بعد الاصفرار ، وماء ابن قردان من أقبح المياه ، وأما ماء الزوارة فمن أحسن المياه . ثم منه ونزلنا مليته قرب العصر ، ثمّ عقبة[4] قرب الاصفرار ، وأودعنا جملين بها على يد الأخ سيدي عبد الظاهر ووصلنا زنزور قرب المغرب . ووثـــب بعض السرّاق على بعض الحجّاج وأخذوا منهم ما قدّر لهم ، وفطن لهم بعضهم وأوقعوا به الضرب والشج برأسه وأصمّوه بإذن الله – نسأل الله السلامة والعافية بمنّه وكرمه .

---

[1] في ت: زرقدانة.
[2] في ت: الأطراف.
[3] الوطب- لغة- هو سقاء اللبن، ويجمع على أوطب ووطاب وأوطاب.
[4] ت: غضبة.

ثم ارتحلنا قاصدين لمدينة طرابلس أمنّها الله ، بينها وبين هذه البلدة نحو من اثني عشر ميلاً . أ هـــ . والحمد لله .

ذكر وصولنا لطرابلس – حماها الله من الأغيار

كان وصولنا لطرابلس ظهر يوم الأحد ، الثاني والعشرين من شعبان وستة عشر من أكتوبر ، ونزلنا بإزاء الهنشير لأجل فتنة وقعت واختلاف بين أهل طرابلس وباشاها خليل[1] ، كان ظلوماً فجوراً يقدّم الكفرة من الروم على أهل الإسلام ، واتخذ بطانةً من النصـــارى ويوليهم على المسلمين وكاد يخلع ربقة الإسلام من عنقه ، وأضرّ بالمساكين . ولا لأحد عنده حرمة من أئمّة المسلمين وساداتهم بل يعمل على الإساءة إلى الأعيان من المرابطين والعلماء العاملين ، فلا يرقب في أحد إلاّ ولا ذمة حتى لا تجد الرعية منجى ولا ملجأ إلاّ إلى الله .

فلذلك قيض الله له من نفاه من أهله وقبيلته وقامت معه العامّة وأسعفوه على نفيه ورموه على قوس واحدة ، وخرج عن البلاد لغرض أوداه ومقصود أرداه ، فسدوّا المدينة في وجهه والشّوارع بين يديه ، ولم يجد مسلكاً لما أراد ، وخيّم بطرّة وحاصر البلد مع جنده المفلول وحزبه المخذول ، ولما حاذيناه بعث لملاقاتنا أعيان دولته ورؤساء محلتّه فلقيناه . ورغب في النزول بإزائه والبيات تلك الليلة بحذائه وامتنعنا ، وسرنا ، وتعرّض لنا أهل الساحل والمنشية أفواجاً أفواجاً ، فرادى وأزواجاً ، بقضهّم وقضيضهم وعددهم وعديدهم ، آخذين أهبتهم ومبدين شوكتهم ، ولمّا عاينونا وأيقنوا أنّنا لهم سلم وأنّا وفد الله وزوار نبيّه ضجّوا باكين وكشفوا رؤوسهم وأذلوا أنفسهم وأعلنوا عقيرتهم وكشفوا سريرتهم ، قائلين بصوت عالٍ ودوي متـــوال : "يا لوفـــود الكبير المتعالى! من للأسير العاني ، المضيم المتفانيّ ؟ فكّوا بمن إليه توجهتم ، أسيراً عتت عليه الأعادي ، وارحموا ذلّة الكئيب بحق البيت والطائفين بالإسناد ، وانصروهّ فإن لكم جاهاً يفلّ لديه حدّ العوادي" . ولم يرتب من عاين تلك الحال ،

---

[1] المقصود هو خليل قازدا غلي (او القاره طاغلي) الذي استولى على حكم طرابلس عام 1114هـ، وعزله عنه إبراهيم الأركلي أليلي عام 1121 هـ.

وشاهد تلك الفعال ، بأن الله منجزٌ لهم وعده وناصر جنده ، وجاوزناهم وفي حفظ الله تركناهم ،ونزلنا بالمنزل المذكور، وأقمنا به يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأكرمنا بها أحبتنا ؛ المفتي أبو عبدالله المكني وابن أخته ابن مقيل وأولاد الأخ الصدوق أبي محمد السيد عبدالله بن غلبون ، رحمه الله تعالى وأرسل إليه شآبيب غفرانه ووالى ، وأهل دار الأخ المصافي والزلال الصافي أبي الحسن سيدي علي النجار وسيدي أحمد بن جابر وصهره سيدي عبد الظاهر وسيدي محمد بن عبدالله بن فرج الله وسيدي محمد بن عثمان ، وسيدي عبدالله بن يحي الحيحي[1] ، وسيدي حامد بن محمد التواتي ، وابن عمه سيدي عبد اللطيف بن عبد القادر ، ولهم بجانبنا محبّة صادقة وأخوة رائقة ، ولما رأى منهم الأديب البليغ الأريب صهرنا أبو العباس بن محمد البرسوني نجاراً الشفشاوني منشأ وداراً ، ما يروق من الوداد ويفوق من صفيّ الاعتقاد ، مدحهم بما نصّه (قال) :

إخـوان صدقٍ في طرابلس سعوا	**للمجـد بـالإدلاج والإسعـاد**
أرزوا الى فعل الكرام وأوسعـوا	**وفـد الحجيج من النعيم البـادي**
برزوا إلي الاحسان في أوج العلا	**مستـوجبين فخار صدر النـادي**
فاقت صنائعهم صنيع ذوي النّدي	**شكـر الفعال رواحهم والغـادي**
سبقت إلي الاحسـان أنفسهم وقد	**تَجِـروا لربّهم بمحامد الأيـادي**
فهم البحـور الـزاخـرات لوارد	**عـذب المنـاهل غنية للصـادي**
فتـزيّنـت بهـمُ طـرابلسٌ وقـد	**بــرزت بـوجـه نيّر وقـاد**
تجلـي عروسـاً زانها كف الحيا	**بقـلائـد العقيـان في الاجياد**
فتـرى الريـاض أمـامها ما بين	**مخضـر يميس بغصنـه المياد**
ومفضـض الأزهار حاكى كوكب	**الجوزاء او برق السحيم الغادي[1]**

(1) ف: الجيجي.

(1) ت: أو مغرد الجسيم القاد. ف: أو برد السحيم الغادي. والمقصود برق السحب الدكناء المثقلة وهو برق شديد ساطع.

ومــورد ومعــصفــر في روضة يسلو الفــؤاد به من الانكـــاد
فتخــاله شــرب العقــار فينتشي سكــرا ويطــربه نشيد الشادي
والبحــر حــف بهــم تخال أكفهم منه غــدت تســري بكــل مراد
لله مــن سفــن بـــه يحمــلن من نــوع المتــاجر دائم الامـــداد
فــرعــى الآلـــه ذويّهـــا ونعيمهـــم وحمــاهُم من صــولة الآعادي
نشروا الأيادي على العباد وأوضحوا سبــل الرشــاد لمقتفي القصاد
حــرصوا على نيــل الهدى وسبيله فقفــوا سبيــل أئمّة أمجـــــاد
أعــلام هــدي يهتــدي بمنــارهم وطــريقهم في الــدين والإرشاد
فــالســالك الأرضى جــنيد زمــانه والشــاذلي والجيلــي في بغداد
والعالم الأحظى ابن نــاصر الــذي نصــر الإله بـــه طــريق الهادي
صلّــي عليــه الله مـــا لاح بــارق أو درّ بــرق أو تــرنــم حــــاد

فائدة :

قال الشيخ محمد بن علي شارح (الشقراطسية) ناقلاً عن البكري :

" ويذكر أن تفسير طرابلس بالعجمية " ثلاث مدن" . قال : وعلى مدينة طرابلس سور ضخم جليل البنيان ، وهو علي شاطئ البحر، وبها أسواق حافلة وحمامات كثيرة فاضلة ، وبها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ، ومرساها مأمون من كثرة الرياح . ومدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيرات وبها بساتين جليلة في شرقيها . ويتّصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير. ومن طرابلس إلى جبل نفوسة ثلاثة أيام . وذكر الليث بن سعد ، قال غزا عمرو ابن العــاص مدينــة طرابــلس سنة ثــلاث وعشــرين حتى نزل القبّة علي الشّــرق[1] من شرقيها يحاصرها شهراً لا يقــدر علي شيء . فخــرج رجــل من بني مدلج

[1] كذا في النسختين، ولعلها (الشرف) بمعنى: مرتفع الأرض.

ذات يوم من عســاكر عمرو يتصيّد في سبعة نفر ، فمضوا غربَي المدينة ، فاشتدّ عليهم الحر ، فأخذوا راجعين علي ضفة البحر قد غاض من ناحية المدينة . فدخلوا منه حتى أتوا علي ناحية الكنيسيّة ، فكبروا . فلم يكن للرّوم مفزع إلاّ سفنهم وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم يفلت الروم إلاّ بما خفّ عليهم في مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان بالمدينة . وسور المدينة مما يلي البحر إنّما بناه هرثمة بن أعين في حين ولايته للقيروان . وبعث عمرو بن العاص إلي ودّان بسر بن أرطاة وهو محاصر طرابلس فافتتحها ، وذلك سنة ثلاث وعشرين . وأكثر معيشة أهل ودّان التمر ، ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح . وافتتح عمرو بن العاص رضي الله عنه نفوسة- وكانوا نصارى- والي مراحيل نفوسه [1] شروين ؛ مدينة كبيرة وأبنية جليلة وبين طرابلس ومدينة شروين خمسة أيّام بينهما حصن لبدة ؛ حصن من بنيان الأول بالآجر والحجر ، حوله آثار عجيبة وخرائب كثيرة ، يسكن هذا الحصن قوم من المغرب جملتهم نحو ألف فارس ، وهــم محاربــون لجميع من يجاورهم من قبائل البربر- أزيد من عشرين ألفا بين راجل وفارس- ظاهرون عليهم . وفي وسط جبل نفوسة النخيل والزيتون الكثير والفواكه ، ويجتمع فيما حوله من القبائل ستة عشر ألف رجل، وطول جبل نفوسه من المشرق إلي المغرب ستة أيام" . انتهي كلامه مع بعض اختصار وتغيير .

وفي (رحلة) أبي سالم[2] :

"وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة ،ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة ومعايبها قليلة ، أنيقة البناء، فسيحة الفناء،عالية الأسوار متناسبة الأدوار،واسعة طرقها سهل طرقها ، إلي ما جمع أهلها من زكي الأوصاف وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة وعلى

[1] كذا في النسختين.
[2] أبو سالم العياشي .

المتعارفين بأنواع المبرّة عائدة ، لا تكاد تسمح من أحد من أهلها لغواً إلا سلاماً ولو لمن استحق ملاماً ، سيّما مع الحجاج الواردين ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ؛ فإنهم يبالغون في إكرامهم ولا يألون جهداً في أفضالهم عليهم وإنعامهم ، ولهذا المدينة بابان : باب إلى البرّ وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه وبين البحر . ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو- دمرهم الله- وله سفن قلّ نظيرها معدة للجهاد في البحر ، قلمّا تسافر وترجع من غير غنيمة وقلما أسرت لهم سفينة إلاّ أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد . فجزاهم الله خيراً وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين " .

قال:

" وكان عادة الركب إذا دخل هذه المدينة ، سيما في الذهاب ، أن يقيموا بها نحواً من شهر يستعدون منها لدخول المفازة التي قلّ نظيرها ، وهي مفازة برقة . ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون إليه من الإبل والقرب . ويتخذون زاد نحوٍ من ثلاثة أشهر إلى مصر، إن كان الوقت شتاءً ، وإن كان الوقت صيفاً فنحوٍ من شهرين " .

قلت :

وهذا في الزمان الأول حيث يبكر الحجيج بالخروج من ديارهم ، فيخرجون بآخر أكل طعام المولد النبوي ، فتكون معهم فسحة ، فيسيرون سيراً معتدلاً ، يلائم الراجل ويوافق الراكب . وأما هذه الأوقات فيؤخرون الخروج إلى رجب ولا يسعهم إلاّ إزماع السير إزماعاً وإلا عوّقوا فيفوتهم الحج . ويقطعون مفازة برقة من طرابلس إلى مصر في أربعين مرحلة تزيد شيئاً أو تنقص شيئاً . فتكابد لذلك الجمال مشقة ، وكذلك الرجال .

وأمّا الصعاليك فلا تسأل عمّا يلاقون لذلك .. فإنّا لله وإنا إليه راجعون . عادة العباد ؛ حِبالة[1] للتجارة ، ملعبة وملهىً للغافلين عن دار القرار .

ثم قال :

"وإبل عمالة طرابلس غاية في الجودة ، قل أن يوجد لها نظير ، شبيهة بإبل بلدنا بل تزيد عليها بكثرة الخدمة ، فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء ، حتى الحراثة والدراسة ويسقون عليها ويديرون . فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة مع طيب هواء البلد ونقاء مرعاها ، فيقل فيها الغش وتندر أمراضها . ولذلك قيل في أمثال الحجاج : (جمل طرابلسي وقربة مصرية)- لأن قرب هذه البلاد رديئة الدباغ وماءها خبيث المساغ ، ومع ذلك لا تمسك من الشراب إلا كما يمسك الماء الغرابيل . من اتكل عليها أوسعت عليه الري والمسافة وأردته آخرها وردت عليها المخافة .

وهذه المدينة قد شهد أهلها بركة الحجّاج والمجاهدين في أمر معايشهم بما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآيبين خمسة آلاف وستة ، ويضاف إلى ذلك في كثير من الأحيان خروج عسكر إلى البحر لجهاد ، ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم ، بل ربما نقص في الغالب،مع أن البلد في أكثر أحوالها معروفة بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرباب النيل وسواحل المغرب وجباله . إلا أن أهلها مستلبون بها غاية وراضون بها إلى النهاية.وهي جديرة بذلك . إذا اجتمع الركبان بها كثر الزحام على الرواحي غاية، فلاقى الحجّاج من ذلك مشقّة . ولولا ما جبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيّأ للحجاج أخذ زاد منها لصغرها وكثرة الواردين على الصحراء في كل سنة ؛ فإنهم يتأخرون ويستصحبون معهم جلّ ما يحتاجون من الإبل والقرب فلا يزودون منها إلا قليلاً ، وإنما يحتاجون إلى اتخاذ الزاد فقط . وأما ركب

---

[1] الحبالة (كالأحبولة) وما يصاد بها.

الجريد- أهل البغال والحمير- فتطول إقامتهم بها في الغالب وربما أقاموا الشهرين أو أزيد لبيع الدواب وشراء ما تقدم ذكره . فكأنما يستأنفون منها سفراً آخر غير الذي كانوا فيه قبل ذلك ، لأنّه مخالف له في كثرة أحواله حتى كأنّه لا يشاركه في مطلق السفر . ولذلك تجد كثيراً ممن لم يتقدم له حجّ يشق عليه الخروج من طرابلس أكثر من بلده وكذلك الخروج من مصر بالنسبة إلى ما قبله . نسأل الله العون والتوفيق على سلوك أحسن الطريق" .

ثم قال :

" وكان نزولنا يوم دخولنا طرابلس في المحل الذي نزلوا فيه قبل ذلك في المصرية التي على باب المسجد المسمىّ بجامع الحاج إبراهيم بأقصى المدينة قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي سالم المشاط " .

قال :

" ولما اطمأن بنا المنزل ذهبنا لزيارة شيخنا مفتي البلد سيدي محمد بن أحمد بن مساهل- رضي الله عنه- فلقينا أحسن الملاقاة وفرح بقدومنا، فجزاه الله خيراً ووجدناه- رضي الله عنه- قد استعفى من الفتوى وبقى ملازماً لداره ومسجده للتدريس فيه مستريحاً من التكاليف مشتغلاً بمطالعة التآليف ، ولا يقطع القراءة في الغالب صباحاً ومساءً ، صيفاً وشتاءً ، يقرأ ما تيسّر من فقه ونحوٍ وما يشاكل ذلك ويختم بشيء من كتب الوعظ والتذكير " .

قال :

"وهذا الشيخ-رضي الله عنه-من أحسن من رأينا سمتاً ودلاً وأصدقهم قولاً وفعلاً ، له مشاركة في العلوم وحسن إطلاع على فروع المذهب . طالت ولايته في الفتوى نحو أربعين سنة وحمدت سيرته فيها . وله – مع ذلك- ميل قوي إلى طريق القوم . وقد أخذ الطريق بلا نزاع بين أهل تلك البقاع عن

الحاجية

سيدي محمد الصيد - رضي الله عنه- و(الصيد) في لغة أهل هذا القطر هو (الأسد) . وسمّى بذلك لكثرة ردعه للظلاّم وقهره للجبابرة حتى كان لا يجترئ أحد على معارضته في ما أمر به ولا يتعرّض لمن انتسب إليه، وظهرت له كرامات . وقد أخذ الطريق عن سيدي محمد بن عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة ، وقد أخذ عن الولي الكبير والعلم الشهير سيدي أبي عمر القسطاني المراكشي. ولأجل هذه النسبة لم يزل ولد الشيخ المذكور- سيدي عبد الحفيظ- يبالغ في إكرام أولاد سيدي أبي عمر ، بل في تعظيم كل من ينتسب إليهم بقرابة أو جوار أو غير ذلك . وإن اتّفق قدوم أحد عليه فلا يبقى ولا يذر في إكرامه والمنزل بين يديه كأصغر الخدام وأحقرهم . ولقد حجّ معنا سنة ستين سيدي محمد بن أبي القاسم من أولاد سيدي أبي عمر فتلقاه بالبرّ والتعظيم وأنزله عنده وبالغ في إكرامه وشيّعه في الذهاب والإياب نحو سبعة مراحل . ولقد أخبرني من حضره ذات يوم وقد غسل سيدي محمد بن أبي القاسم يده- صباحاً- ورأسه من حنّاء كانت بهما في إناء ، فأخذ سيدي عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة في ذلك الإناء وشربه . نفعه الله بحسن اعتقاده . ولهذا السيد اعتقاد حسن في كل من ينتسب إلى الصلاّح ، وقد نفعه الله بذلك ؛ فطار صيته وانتشر ذكره في البلاد أكثر من أبيه ، وهابه الولاة فمن دونهم . وله- كما قيل- دنيا عريضة من كلّ المال ، قد أتاه الله نعماً وحرثاً وغيرهما ، يُطعم منها الواردين ويواسي المحتاجين ، أعانه الله على ما به تولاه ورزقه الشكر على ما أولاه . وتوفي الولـي أبـوه سيدي محمد الصيـد سنة خمسين وألف " .

قال :

"وقد أخبرنا سيدي محمد بن مساهل أنه منذ عرفه لم يترك صلاة الجمعة عنده إلاّ لعذر ظاهر ، ولم يزل على ذلك إلى الآن- منذ أزيد من أربعين سنة- يذهب كل يوم جمعة ضحىّ إلى مجل الشيخ المذكور بالقرية المسّماة بالهنشير ، وبينها وبين المدينة ستة أميال ، فيصلّى هنالك الجمعة ويرجع إلى المدينة " .

لطيفة :

قال :

" أخبرني شيخنا هذا أن شيخه المذكور قال له ؛ إن لأهل الله مراغة كمراغة الإبل لا يمر بها أحد منهم إلا تمرّغ بها ، وأني لأرجو الله أن يجعلك مراغة لأوليائه . ولأجل دعوة هذا الشيخ لا يدخل أحد هذه المدينة ممن له انتساب إلى الطريق المبارك إلاّ كان إيواؤه إلى هذا الشيخ ، إما بنزوله عنده أو بالتردد إليه – رضي الله عنه– يقوم بحوائجهم بقدر الإمكان ويواسيهم . نفعه الله بقصده " .

فائدة :

قال :

" وأخبرني شيخنا ابن مساهل عن بعض مشائخه أنه قال : إذا أذّن خلف مسافر فذلك أمان له حتى يرجع من سفره . وروى لنا في ذلك حديثاً . وقد فعل لنا ذلك – رضي الله عنه– حين ودعنا خارج داره ، ورأينا بركته ولله الحمد " .

ثم قال :

"غريبة :أخبرني سيدي محمد بن مساهل سنة أربع وستين في الرحلة التي قبل هذه أنهم سمعوا في سنة اثنين وستين وألف صوتاً هائلاً من ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل " .

قال :

"وظنناه سفناً للمسلمين تلاقت مع بعض سفن النصارى ، وكما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذه السواحل إلى مصراته وسمعه حتى

أهل فزان وإسكندرية ، وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس ، وكل يظن أنه قريب منه . وبعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من برّ الترك وأخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل . وذلك أن جزيرة من جزائر برّ الترك خرجت في بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر ، حتى إذا ارتفعت على الماء وعلت في الهواء تصدّعت ، فيخرج منها نار ويسمع لها ذلك الصوت فإذا خرجت النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الخفافة . ودام ذلك إلى الليل ، وارتفع من ذلك في الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت . وأعجب من هذا أنهم قالوا ؛ أصبح في ذلك البلد كل ما عندهم من الفضة نحاساً . والله أعلم " .

قال :

"وهذه المدينة معروفة بأهل الصدق في الأحوال من المجاذيب . وقد أدركنا رجلين أو ثلاثة من المجاذيب تؤثر عنهم كرامات وحكايات غريبة تدل على صدقهم في مواجدهم . وكانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة من أكابر الصالحين ، ولا يعرف منهم إلا القليل ، كسيدي سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذي في المدينة ، وقبره يزار " .

قال :

" وسبب خفاء قبور كثيرة من الصالحين المدفونين أن البلد قد تداولته أيدي المسلمين والنصارى مراراً عديدة . فقد ذكر ابن بطّوطة في رحلته أن النصارى استولوا عليها في أيام السلطان أبي عنان ، وافتداها منهم بخمسة قناطير من الذهب العين . فعدّ ذلك من مآثره " .

قال :

" وقد استولى عليها النصارى أيضاً في القرن العاشر " .

الحاجية

قلت : وفي رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست وتسعين ألف حاصرها الكفار دمرهم الله تدميراً . وذلك أنّا نزلنا يوم نزولنا بها بمنزل الركب بشط البحر ، فإذا بسفن ثلاث ظهرت في البحر ، ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن كملت اثنين وعشرين سفينة . فأقاموا عليها- دمرهم الله- بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم ، وعناء شديد ، وليس فيهم مدبّر ولا ذو رأي حميد أو نظر سديد . بل أخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها وحريمهم إلى سوانيهم . ولما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم على فعلهم غير اللائق بهم ، فيما يبدو لنا ، من إظهار الجزع والجبن لأعداء الله الكفرة اللئام الفجرة . وقلنا لهم ؛ إن هذا الصنيع ذميم مما يغريهم بكم ، فاصبروا ولا تظهروا لهم الوهن والجبن . فقالوا ؛ هذا والله ليس بجبن ، وإنّما حَملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البنبة[1] ، يضربون بها ، ولا تقع على شيء كائنٍ ما كان إلاّ وهدّته ودكّته . والمسلمون في هذه الليالي كلها لا ينامون ، بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله ونحن ركبنا معهم في ذلك مستهلّين بالشهادة ، رافعين صوتنا بالتكبير ومعلنين بالصلاة على البشير النذير- عليه أفضل الصلاة وأزكى التحيـات من الملك القديـر ، وعلى آله وصحابتـه ذوي المنهـج الواضح المنير .

فلما كان بعد صلاة العشاء ، ليلة السبت ، ضرب الكفرة- دمرهم الله- بمدافعهم ورأينا من ذلك لم نره قط ولا سمعنا به. ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محمرة تحكي الشهب خرجت منه صادعة . ثمّ يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى ، ثم تتدلى هابطة ، فإذا وقعت في الأرض سمع لها صوت هائل تصمّ منه الآذان ، فتتصدع بالموضع الذي وقعت فيه وتتفرق . ولا تقع على بناء إلا وهدّته، ولا على بسيط مستوٍ إلا

---

[1] كذا في النسختين- وهي يعني (التنبلة)التي يدعوها بعد قليل: (الكورة) ويجمعها على (كور). والأصل اللغوي معروف.

وحفرته ، ولا على علية أو أسطوانة إلا وهدّتها ، ولا على شجـرة إلا وحرقتها أو قلعتها . فتمكث في أعماق الأرض سويعة ، فتنتكس ، فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول ، ونحن في ذلك رافعو الأكف بالذلة والافتقار والخضوع والتضرع إلى الله تعالى الليل كلّه ، ولا نكتحل بنوم قط . ما خرج مدفع من مدافعهم إلا وظننا أنه يقع علينا، فتارة تقع حذانا . وتارة تمر علينا . وأكثر ما تقع بالمدينة أو البحر أو قرب المدينة- خارجاً . وفي بعض الليالي ، وهي من الليالي الهائلة ، أخذوا في الضرب الليلَ كلّه إلى الصباح ، بل إلى الضحى ، لا يفترون عنه ساعة . وضربوا- فيما أخبرني بعض فقهاء البلد- أزيد من تسعمائة كورة . فلما رأينا هولهم العظيم ، ومعنا النساء والصبيان وفيهن الحوامل ، فخشينا عليهن أن يقذفن ما في أرحامهنّ مما يعاين فتحولنا لبعض البساتين المسورّة ، فنزل الركب بها وأدخلنا حريمنا لبعض الديار . ثم أمسكوا عن الضرب إلى أن وصل العشاء[1]، فضربوا أيضاً دفعة واحدة.فهاجت عليهم أرياح عاصفة وأفسدت كورهم بإخماد ما تعلّق بها من نار . وعند الفجر عادوا إلى الرمي ، إلى الضحى .فلما قرب الزوال رجعوا إلى المرسى فعاقهم من بالبرجين اللذين على البحث من المرابطين بها البائعين أنفسهم من الله ، و(البحر) قط لا يخلو من حارس في السلم والحرب ، وردوهم على أعقابهم بما قذفوهم به من الكور والمدافع حتى كسروا لهم صندلاً صغيراً .فنكصوا على أعقابهم، وولّوا أدبارهم وعاينوا دمارهم[2] ، والحمد لله رب العالمين ! .

فكثر اللغط والويل بالبلد ،فجاء أهل الإسلام من كل وجهة مشاةً وركباناً بعددٍ وعُدد ، كلّ حسب وسعه . فاكفهّرت وجوه الأبطال وكحلت[3] شفاه الرجال وشمّروا للنزال وتهيأوا للدفع والقتال ، واحمرّت الحدق ، فكسا الكفرةَ الفـرق . فارتحلـوا إلى أبعـد مكان ، فأبعـدهم الله وسحقهم

---

[1] ف: صلى العشاء.
[2] ف: وعانقوا أدبارهم.
[3] ف: وكلمت.

وأذلهم وأقلقهم . فكاد الإسلام يقتحم بأهله البحر إليهم ، وأشد الناس عليهم حنقاً الحجيج فعملوا على[1]النجاز والنضال والبراز،ولولا البحر لأراهم الله من أهل الإسلام ما يسوؤهم.فكتب كلّ وصيته وأعدّ الشهادة مغنماً وفواتها مغرما.كل يرجو أن تخرج الكفرة للبرّ .واجتمعت آلاف مؤلفة من أهل الإسلام الأبطال،من أهل الدفاع والقتال.وما ردّ الكفرة عن الخروج إلاّ شدة الحزم وقوة العزم وأبلغ الغيظ على أهل الكفرة والظلم .

ثم جرى بينهم صلح على أن يدفع لهم المسلمون جميع من عندهم من أسراهم.وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك ،والكفار على المسلمين أن يردّوا لهم ما أخذوا قبل ذلك الزمان في البحر، في هدنة بينهم . وقبل المسلمون لهم ذلك وقدره–والله أعلم– مائة[2]ألف ريال قرميلية . فحينئذ دخل الكفرة المدينة للتسوق ، وربما أغلظوا على بعض المسلمين في القول لتوعد أمير البلاد العثماني لمن أساء إلى كافر بعقاب شديد ، وهو علج ، فأغرى ذلك الكفرة بأهل الإسلام ، فصبر أهل المدينة لذلك.وأما المغاربة وأهل الحجيج فأغلظوا على الكفرة وأخشنوا لهم في القول،وربما ضربوهم ولا ألقوا إليهم بالا– إعزازاً لدين الله وإعلاءً لكلمة الله. فرفع الكفرة ذلك لأمير البلد ، العلج المذكور . فقال:"إن المغاربة شدادٌ على النصارى".وقال : " اتركوهم لئلا يقع فيكم القتل ولا يَد لي عليهم ، فدعوهم عنكم وتحملوا منهم ما واجهوكم به " .

وأخذوا في دفع ما شرط عليهم.فصاروا يدفعون الخيل والزرع والإبل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وكلّمنا علماءهم المالكيّة فقالوا : "إن هذا هو الصّغار بعينه . ولا قدرة لنا على ما فعل هؤلاء الأتراك " . وخرجوا تلك الأيّام خارج المدينة مخافة حضور هذا الفعل الذميم .

---

[1] ت: واشتد الناس عليهم، حتى الحجيج ففلوا على ذلك البخاز.
[2] ف: مائتا ألف.

من جملة الدواهي المعضلة أننا دخلنا للجمعة . فجلسنا ننتظر الإمام . فإذا برجال من أهل الدولة[1] بالنداء : "لا تُصلّى الجمعة!" فقام لهم صاحبنا الفقيه سيدي محمد بن أحمد الهشتوكي فقال لهم : "إن هذا والله حرام لا يجوز. كيف تتركون الجمعة من غير عذر بيّن ؟ "- وأكثر من ذلك. فقام فقيه منهم فقال:"إن هذا جائز عندنا ".فخرجنا من مسجدهم فأتينا مسجداً آخر يصلى فيه الجمعة المالكية. فإذا برسول الدولة ينادي بما نادى به أولاً، فأبى الإمام المالكي ، فصلاّها- رضي الله عنه- قائلاً :"والله حتى أصلّيها ولو تنفذ ساعتي"- فصليناها معه ، جزاه الله خيراً ووقانا وإيّاه ضيراً! .

ثم أجلى الله الكفرة عن المدينة يوم الخميس بعد تمام المهادنة وإمضاء شروطها.وفرح المسلمون بانتقالهم عنهم وإقلاعهم عن البحر غاية الفرح . (أخزى الله الكافرين وأذلّهم وأعزّ أهل الإسلام وأحاطهم) .

نكتة :

أخبرني بعض من يوثق به أن هذه الآلة التي يرمى بها الكفرة كانت تصنع من نحاس وحديد وذهب وفضة وأنواع أخرى من المعادن ، ويفرغونها في قدر ، كالقدر المتوسطة المسمّاة في عرف أهل بلادنا بالمقلاني ، وبها يدان مثلها ، وبها ضيق قدر ما يدخل فيه الإنسان ثلاثة أصابع أو أربعة . ويأخذون عود الكلخ ويثقبون وسطه طولاً ، ويجعلون فيه فتيلة تخرج من جوفه وأسفله . ويملأونها باروداً ومسامير وقطع الحديد وعقاقير ، ويجعلون هذا العود في فمها ، ويسدّون عليه بحلقة الحديد ،ويجعلونها في مدفع على هيئة المهراس بعد ما يجعلون فيه البارود ويرفعون فم هذا المدفع نحو السماء ، فإذا مُس بنار خرجت والنار مشتعلة بالفتيلة وهي طالعة في الجو والريح ينفخها والنار في الفتيلة وعود الكلخ

اشتعالاً بما يصيبه من الريح . وتُرى في الجو على هيئة النجم ، فلا تصل النار إليها حتى تسقط حيث تسقط . أ هـ .

ولقينا بهذا الثغر في السنة الواقعة هذه أخونا في الله سيدي أحمد بن عبد الواحد بن يوسف الزنزوري ثم الفزاني وهو ساكن بزاوية زنزور ، وأضافنا يوم نزلنا موضعه وشيّعنا لطرابلس، وكان يتعهدنا مدة إقامتنا بها. وأنشدنا لنفسه يوم الوداع قال :

" أيا سيّـــدي حق فإني عبيدكم ذليــل حقيــر بيــن قــوم أراذل

ونفــس له شيطان قد بلي بها هــواه وابليس ودنيــا العــلائل

أفيضوا عليه سيدي من نوالكم عسى وعسى يعلو على كل كاهل

ويفهــم مــولاي علوما دقيقة ويمسى خليّ البال من كل شاغل "

ومن جملة أهل ودنا بطرابلس من السادات والأعلام : أبو عبدالله سيدي محمد بن مقيل وصهره الأجل سيدي محمد بن أحمد المكني ، تقبل الله عملهم وأصلح فعلهم . وأطالا التردد إلينا بأطعمة وفواكه مدة إقامتنا بها . ولحــق بنا هنالك الفقيه الأجل أخونا ومحبّنا سيدي محمد بن أحمد الهشتوكي . وقرأنا بهذه المحروسة على شيخنا أبي العباس سيدي أحمد القصري تواليف على " الربع المجيب " . ومدة إقامتنا بها في تلك المدة شهران كاملاً ويومان . وظعنّا منها تاسع عشر شعبان يوم السبت .

نكتة :

إن ترجمة هذه اللفظة (ثلاث مدن) . والأشهر في ضبط هذه المدينة فتح الطّاء وضم الباء واللاّم ، وبعض الناس يكتبها بزيادة الألف قبلها وإسكان الطّاء . قال التجاني في (رحلته) :

" وكذلك رأيت الأجل أبي يكتبها حيثما وقعت في خط . وعلى ذلك قول أحمد بن يحيي ، من قديم شعرائها ، في قصيدة له " :

الحاجية

" لقد طال شوقي إلى فـتية حسـان الوجـوه بأطـرابلس
وقد عيل صبري فما مسعف على الشوق إلاّ دمعيَ المنبجس "

قال :

" وذكر لي بعض النّبهاء من طلبتنا أنه وقف لبعضهم على أن المختار في طرابلس هذه أن تكتب بزيادة الألف ، وأن المختار في طرابلس- وهي طرابلس الشام- أن تكتب بغير الألف تفرقة بينهما ، وبخارج البلد محارس قديمة ومساجد كثيرة مشهورة بالفضل ، مزارة للبركة ، وأثنى البكري على المسجد المعروف منها بمسجد الشعّاب ، وذلك أنه أعمرها وأشهرها (يريد في ذلك الزمان وأما الآن فهو خالٍ لا عمارة به) " .

قلت :

أما في زماننا فلم نسمع له ذكراً . وفي الأزمة السالفة جملةٌ وافرة من أكابر الصالحين والعلماء العاملين ومزارات شهيرة ، من جملتهم : أبو محمد عبدالله الشعاب أحد العلماء الفضلاء من أهل طرابلس ، وكان نجّاراً فحضرت له نيّة في إتمام هذا المسجد الذي نسـب له . وكان بعض النـاس قبله ابتدأ بناءه ثم عجز عنه ، فرمى الشعاب الآلة من يده وتوجه لإتمامه ، فأتمّه وسكن به . وذكر أن الخضر عليه السلام كان يزوره ويحادثه . وأنهما مجتمعان في المسجد المذكور . وسمع- يوماً- بكاء امـرأة عند باب المسجد فسألها ما السبب ، فأخبرته أن لها ولداً أسره العدو ، فسألته الدعاء فدعا لها وأمنت على دعائه ، ثم انصرفت لبيتها ، فأصبح ولدها في السكك يسأل عن دار أمّه . فسئل ، فأخبر بفراره من الأسر في البحر وسلامته ووصوله عن عهد قريب . فتوجهت المرأة إلى الشيخ تشكره وتعرفه بوصول ولدها ، وأن ذلك كان بدعائه . فهنأها بسلامته وقال لها : " إنما نجّاه الله بدعائك عندما علم اضطرارك " . وكانت وفاته- رحمه الله- سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف[1] .

---

[1] كذا في النسختين، وهو لا يتفق مع حقيقة أن صاحب الرحلة ذاته توفى عام 1128هـ، وهو قام برحلته عام 1121هـ. إلى 1128 هـ.

ومنهم الشيخ خطاب البرقي ، الرجل الصالح ، يكني أبا نزار . وكان ذا كرامات خصوصاً في باب المرائي- ظهرت له في ذلك عجائب . وكان يخاطب في النوم بجميع ما يكون في اليقظة قبل كونه ، والتقى بالخضر . وذكر أنه عارضه سبع فقال له : (أبا الحارث ! إن كنت أمرت فينا بشيء فدونك ، وإلاّ فالطريق) .

قال : (فقرب مني ووقف هنيهة ثم انصرف) . وحكى أنه قال : (بينما أنا في البريّة إذ رأيت شخصاً ، فاستغربت وجوده هنالك وقصدته فوجدته مفرج بين بياضة ، فقلت له : أبا عبدالله ! ها هنا ؟ فقال : نعم ، يا أبا نزار ! فاستغربت معرفته بي مع أنه مكفوف البصر) . وكان مفرج هذا رجلاً صالحاً من جزيرة تـونس المعروفة بجزيـرة (باش) وكان يخرج وحده من بلده إلى مكّـة فيحجّ ويعود . قال : (فبتنا جميعاً وتآنّست به ، وسألته كيف يتهيّأ له الحج مفرداً فقـال : يا أبا نزار أنّي إذا خرجت من موضعي أسمع قائلاً يقول : يمينك .. شمالك .. أمامك.. خلفك ، حتى أصل إلى مكة) . أو كما قال .

ومنهم أبو عثمان سعيد بن خلفون الحساني ، المعروف بالمستجاب . وأصله من قرية حسّان ، من قرى طرابلس ، كان زاهداً فاضلاً منقطعاً إلى الله سبحانه وظهرت بركته غايةً فعرف بالمستجاب . وقال الشيخ أبو عبدالله الخشاب القاضي – رحمه الله : (خرجت مع أبي الحسن بن المنمّر[1] من طرابلس لزيارة الفقيه ابن أبي زيد[2] رحمه الله تعالى وسماع العلم عليه . فبينما نحن عنده يوماً إذ تحدث أبو الحسن فقال : أراد الشيخ أبو عثمان الحساني الحجّ مرة فاتفق معه جماعة من إخوانه أهل الدين والفضل ، وكنت معهم . فخرجنا على الوحدة .

---

[1] ت: المنتظر.

[2] لعل المقصود ابن أبي زيد القيرواني، العالم الفقيه الشهير، صاحب (الرسالة).

وقطعنا صدراً من الطريق ، وأقمنا ثلاثاً لم نطعم . فأتى الشيخ أبو عثمان إلى ربوة ، فمسح وجهه بيده وجعل يأخذ من ترابها ويجعله في إناء كان معه . ثم ثـرّاه بشيء من الماء وقرأ عليه وسمّى . وقال لنا : (سمّوا الله !) قال : (فجعلنا نأكل ونتطعم منه طعم السويق) . قال : فأطرق الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : هذا داخل في الإمكان ، سيّما وقد ذكرتم أنكم أقمتم ثلاثـاً لم تطعموا . وقرأ قوله تعالى: (أمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ) .

ولما رجع المؤدب محرز بن الخلف[1] من الحج قيل له : (من رأيتَ في طريقك من الصلحاء ؟) فقال : (رأيتُ بطرابلس رجلاً وامرأة . أما الرجل فأبو عثمان الحساني ، وأما المرأة فسمدونة) . وكانت سمدونة هذه عجوزاً صالحة تسكن مسجد الشعّاب المتقدم الذكر ، وكان أبو نزار خطـاب ، الرجل الصالح المتقدم الذكر ، يزورها ويعتقد ببركتها . وهذا كما يحكى أن سحنون بن سعيد لما رجع من الحج قيل له : (من رأيت من الصالحين ؟) فقال : (لقد رأيت بطرابلس رجالاً ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم) .

ومنهم أبو الحسن على بن أحمد الخطيب الطرابلسي . أقام ساكناً بمسجد المجاز[2] بها- فيما يقال- أربعين سنة ، وكان فقيهاً عالماً صالحاً زاهداً ، وله في الفقه والفرائض والشروط تواليف مفيدة ، وأقام أربعين سنة لم يضحك ، ونحو خمسين سنة لم يحلف بالله يميناً . وقال له ابن أخيه - عندما أملى وصيته : (أنسيت الكفارة) فقال : (لولا أنّي في الموت لما أخبرتك ما حلفت بالله مذ كذا وكذا محقـّاً ولا مبطلاً . وما علمت أن علي يميناً أكفرها) .

ومنهم الشيخ الصالح أبو محمد عبد الوهاب القيسي رحمه الله . وقبره خارج المدينة بين شرق وشمال يزار.وأهل البلد يعظمونه كثيراً.وحكى لي

---

[1] ف: أبي خلف.
[2] ت: الحجاز.

جماعة منهم أنه رأى النبي- صلى الله عليه وسلم- في أكثر أموره ، فلا يفعل ما يفعل إلاّ بمشاورته . قالوا : ولم يسمع هذا منه في حياته ولكن وجد بعد موته مكتوباً عنه بتاريخ ، يذكر كل ليلة وما رأى منها . ثم أوقفني بعد ذلك بعض أهل البلد على جزء فيه هذه المرائي ، وذكر أنه نقلها من خطه . فرأيت فيها غرائب من سؤاله النبي- صلى الله عليه وسلم- عما يفعله من جميع ما يعرض له من أموره وإشارة النبي- صلى الله عليه وسلم- عليه بذلك بما يراه ، ودوام ذلك واستمراره في كل جزء من جزئياته .

ومنهم الفقيه الإمام أبو إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبدالله الأجدابي اللواتي الطرابلسي ، وقبره معظّم يكثر الناس من زيارته والدعاء عنده . وكان من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم ، كلاماً وفقهاً ونحواً ولغة وعروضاً ونظماً ونثراً . وله تواليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه وفي غيره . ومن جملة تواليفه كتابه المتداول المسمّى(كفاية المتحفظ) وكتابه في العَروض ، وناهيك به حسناً وتهذيباً . وهو نسختان : كبرى وصغرى ، وكتابه في الرد على أبي حفص بن مكي في (تثقيف اللسان) . وكتابه في (شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلال هذه الياء) ، واستوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوال هذه الياء من تصغير وتكبير وغير ذلك . ولما استوفى فيه ذلك استيفاءً جميلاً تعَرّض لشرح مقاطع الواقعة في (سورة مريم) لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام ،فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة والتحقيق.وكتابه (المختصر في علم الأنساب).وله تأليف مختصر في(الأنواء) على مذهب العرب.ورسالته المعروفة بــ(رسالة الأحول) وكان الفقيه أبو أسحاق أحول . وسبب تأليفه لها أنه حضر يوماً بطرابلس عند القاضي بها أبي محمد عبدالله بن محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن هانش[1] الطرابلسي ، فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه.فردّ عليه الفقيه أبو إسحاق. فقال له:"اسكت يا أحول ! فما

---

[1] ت: هانشر. ف: هانشير.

استدعيت ولا استفتيت " فألف تلك الرسالة . وأكثر هذه التآليف ملكتها بخطّه .

وكان ، رحمه الله ، من أحسن الناس خطاً . وأخبرت أن الأمير أبا زكريّا ،رحمه الله، كان شديد البحث عن خطّه ، وسمع أن كتاب (الفصيح) بيع بخطّه بطرابلس ، فأبرد بريداً في البحث عن ووجهه به إليه . وأنه سمع أن بها من كتاب (أمثلة الغريب) لأبي الحسن علي بن الحسن بن حسين الهنائي المعروف بالكراع ، بخط الفقيه أبي إسحاق في ملك بعض بني النفاد من أعيان طرابلس . فوجه إليه فيها فوجه النفادي بها إليه .

وملكت بخطّه أيضاً تأليفه الذي اختصر فيه كتاب (أنساب قريش) تأليف أبي عبدالله الزبير بن أبي بكر بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير ابن العوام- رحمه الله- وحسبك بهذا التأليف الجليل علماً وفائدة. وهو- كما كان الشيخ أبو الحسن بن مغيث رحمه الله يقول : " هذا كتاب عجب لا كتاب نسب " ، ورأيت الفقيه أبا الحسن قد أدخل من حفظه في نفس هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبّه عليها . وكفى بهذا الرجل العظيم القدر بهذا القطر ! ولم تكن له رحلة من بلد طرابلس إلى غيرها . وقد سئل : " أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل ؟ " فقال : " أكتسبته من بابي هوارة وزناتة " - وهما بابان من أبواب البلد نسبا إلى من نزل بهما أول الزمان- يشير إلى أنه إنما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد إلى طرابلس ، يدخل من هذين البابين من المشرّقين والمغرّبين ، وكان له اعتناء بلقاء الوفود والقيام بإضافتهم .

وأخبرني بعض الطلبة أن خطّ أبي إسحاق باقٍ إلى الآن في بعض جداراته بالدار من طرابلس . وهي وسط البلد بمقربة من الجامع الأعظم ، وعلى مسافة يسيرة منها من جهة غربيها دار الفقيه الشيخ أبي الحسن على بن محمد بن المنمر الفرضي المشتهر بفضله وعلمه ورياسته . وهي

مواجهة للمسجد الذي يعرف بمسجد ابن فرج- أضيف إلى الفقيه أبي مسلم موسى بن فرج الهواري الطرابلسي لإقرائه به . وتوفي أبو مسلم هذا سنة اثنين وأربعين وأربعمائة .

وكان مولد الفقيه أبي الحسن بطرابلس قديماً سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة . وله تواليف في الحساب والأزمنة وغير ذلك سوى كتابه المشهور المسمّى بـــ(الكافي) في الفرائض . وقد لقي الشيخ أبا محمد بن أبي زيد القيرواني وقرأ عليه وارتحل إلى مكة سنة تسع وثمانين ، فلقي بها أحمد بن زريق[1] البغدادي . وروي عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله الجوهري . ثم عاد لطرابلس . فلم يزل فيها إلى سنة ثلاثين وأربعمائة . وخرج منها لمحنة جرت عليه ، فتوجّه إلى موضع يعرف بـــ(غنيمة)- بالغين المعجمة والنّون- قرية من قرى مسّلاتة ، فسكن بها إلى أن توفى هنالك سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة . وقبره الآن على الطريق بها ، والناس إلى الآن يزورون قبره ويتوسّلون إلى الله عنده . ويذكر أهل تلك الجهة أن كل رفقة استصحبت شيئاً من تراب ذلك القبر فإنها لا يعتدى عليها . فهم لا يزالون ينقلون ترابه ، فيأخذه من يقصد الأجر من أهل تلك الجهة أو من المجتازين عليه . وهو أول من أظهر السنّة بطرابلس لما كانت في أفريقية الوقعة المعروفة بـــ(وقعة الشيعة)[2] سنة سبع وأربعمائة ، قتل فيها الشيعة وأتباعهم . وعلى يد الفقيه أبي الحسن قتل من قتل بطرابلس منهم . وأول من قطع الأذان[3] " حي على العمل " وأذن في ذلك اليوم أذان أهل السنة بنفسه- وقد قتل ابن عبيد بشراً كثيراً أسقطوا عنده اللفظة من أذانهم تعمداً أو نسياناً . وأول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام ، وقد كان رسم هذه الصلاة امّحى من أفريقية . قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله تعالى :

---

[1] ف: رزين ت: رزيق.
[2] ف: (وقعة الشليقة). ت: وقعة المشارقة.
[3] ت: خير على العمل. ف: حي على خير العمل.

الحاجية

" **لما دخل بنو عبيد القيروان وأرادوا أن يمنعوا الناس من هذه الصلاة، قيل لهم : إنكم توغرون بهذا الفعل قلوب العامة، فإنهم يقولون ؛ منعونا من الصلاة . فأمروا الأئمة أن يختموا كل ليلة ختمة كاملة ولا ينقصوا شيئاً منها . فصلى الناس من أول ليلة بوفدهم . فلما كانت الليلة الثانية نقصوا ، ولم يزالوا ينقصون لثقل ما كلفوا به حتى خلت المساجد منهم كما أرادوا . وأسقط الناس القيام بهذه الصلاة . فكان الشيخ أبو الحسن بن المنمر أول من أحيى رسمها بطرابلس . وقدّم أبا مسلم مؤمـــن بن فرج فصلاّها بالجامع الأعظم ولم تكن قبل ذلك صليت به ، لأنه بناء بني عبيد . وهو أول من أطلق للناس صلاة الضحى جهاراً ولم يكن أحد في مدة بني عبيد يصليها ، إلا مستخفياً بها ، فإن ظهروا عليه قتلوه . ومر بعض عمّالهم برجل على شاطئ البحر يصلي وقت الضحى فسأله عن صلاته ، فذكر أنه كان جنباً فلما مر بالبحر نزل واغتسل وقضى صلاة الصبح فلـــم يقبل ذلك منه ، وأمـــر به فألقى في البحر إلى أن مات** " . انتهى كلامه .

نكتة :

وهذه المزارات كلها خفيّة مندرسة[1] ، وهي خالية لا تعرف ، وكذا غيرها ، مع ما احتوت عليه المدينة من المزارات الكثيرة وذوي المكانة الشهيرة ، تأوي إليها الجهابذة من الزهاد والأئمّة الأفراد لقصد الرباط وحراسة الإسلام لكونها ثغراً من الثغور العظام .

ولما تداولتها أيدي الكفرة خفيت مراسمها واندثرت معالمها ، وذكروا أن الاستيلاء الأخير الذي استولى فيه الكفرة – دمّرهم الله– عليها كان سنة ستة عشر وتسعمائة ، يوم ستة عشر من محرم ، وافتكت منهم عام ثمانية وخمسين وتسعمائة . قال أبو سالم العياشي في (رحلته) :

---

[1] ت: منذ رسمت.

" وتاريخ ذلك فقط قوله : جاء الترك إلى طرابلس[1] . وافتكها منهم درغوت وكان بجربة ومراد باشا (وكان بمسلاته وبقى بها)[2] إلى أن توفي بها . وقبره الآن بها يزار وعليه بناء عظيم .

وسبب أخذها من العدو أن مراكب للمسلمين جاءت من اسطنبول مدداً للعمارة الحاصرة لحلق الواد بتونس . فمرت بسواحل طرابلس . فكلمهم أهل السّاحل في إعانتهم على النصارى فقالوا : إننا لم نؤمر بذلك من السلطان . فقال لهم الباشا مراد : أعينوني في هذا الأمر ، فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم . فحصروها براً وبحراً إلى أن أخذوها . فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان وقال : إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء في الأمر . فرضي عنه وعنهم وأكرمهم .

وأمّا أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قصة غريبة ؛ وهي أن أهل هذه المدينة – فيما مضى- كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال ، وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة . فبينما هم كذلك إذ قدمت سفن النصارى تجاراً بسلع كثيرة . فنزلت بالمرسى فخرج إليهم رجل من التجّار فاشترى جميع ما بأيديهم من السّلع ونقد لهم ثمنها ، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاماً فاخراً . فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقاً ناعماً وذراها على طعامهم.فبُهتوا من ذلك. فلما فرغوا قدّم لهم دلاعاً[3] فطلبوا سكّيناً لقطعها فلم توجد في داره سكّين ولا عند جاره ، إلى أن خرج إلى السّوق فأتى بسكّين . فلمّا رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلد التي قدموا منها ، فقالوا : ما رأينا بلاداً أكثر منها مالاً وأقل سلاحاً وأعجز أهلاً عن مدافعة

---

[1] كذا في ت. وفي ف: (وتاريخه فقط قولك جاء الترك بلس) وفي نص العياشي (نجم وعباس: ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات – ص 191-): (وتاريخه: "نقطة قولك جاءك الترك).

[2] ساقط من ت.

[3] الدلاع = البطيخ.

عدوّ . وحكوا له الحكايتين. فتأهّب ملكهم لدخولها في مراكب في البحر، فدخلوها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة . واستولى الملك عليها ولم ينج من أهلها إلا من تسوّر ليلاً.وانحاز المسلمون إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة، وصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور " .

(أدامها الله للإسلام وأحاطها بالنبي عليه السلام) .

ومن جملة أهل ودنا في هذا البلد : مفتيها الزكي الفقيه اللوذعي خير خلف عن خير سلف سيدي أحمد المكني ، بيته بيت علم من لدن أسلافه الكرام . ووالده سيدي محمد المكني كان من أعلم أهل ذلك الساحل ، تولّى الفتوى ببلده مراراً واشتغل بالتدريس وله مشاركة حسنة في فنون كثيرة . توفي قريباً من سنة ست وخمسين وألف ، ولم يخلّف إلا ولده هذا. واشتغل بالقراءة على الشيخ ابن مساهل ولما استعفى من الفتوى وليها هو ، فحمدت سيرته فيها وظهرت نجابته وسدد في فتواه . وولي أيضاً تدريس الجامع الكبير ، والخطابة ، والإمامة . وصهره العلامة الجليل أبو عبدالله سيدي محمد بن مقيل . والأستاذ الأجل المؤقت الأفضل أبو العباس سيدي أحمد القصري ، والأخ في الله سيدي عبدالسلام بن عثمان . وقد توفي الأولون ، رحمة الله عليهم .

وأكرمنا بها– في رحلتنا هذه– من أهل المحبة سيدي محمد المكني وسيدي محمد بن مقيل ولدا المذكورين ، وأولاد ابن غلبون ، وأهل دار الأخ سيدي علي النجّار . وسيدي محمد[1] بن جابر ، وصهره سيدي عبدالظاهر– وكان دليلنا من قابس إلى هنا– تقبّل الله منه ، وسيدي محمد بن عبدالله بن فرج الله . وسيدي محمد بن عثمان ، وسيدي عبدالله بن يحيي الجيجي[2] ، وسيدي حامد بن محمد التواتي ، وابن عمه سيدي عبد اللطيف بن عبدالقادر ، وجماعة وافرة لم أستحضر أسماءهم الآن ، وتلقن الورد منهم جماعة ، فالله ينظمنا في سلك أهل الولاية المحفوفين بالعناية المحفوظين منه بالرعاية ... آمين !

---

(1) ف: أحمد بن جابر.

(2) ف: الحيحي.

الحاجية

ذكر رحلينا من بلد طرابلس

(حماها الله)

وكان رحلينا منها يوم الجمعة السابع والعشرون من شعبان والثالث من أكتوبر.ومررنا على ضريح الإمام الولي الصالح سيدي عبدالحفيظ ووالده سيدي محمد الصيد. والتقينا بالحجاج – حينئذ – سيدي حامد بن محمد بعد أن رحلنا مراحلنا قاصدين منزل الركب بتاجوراء ونزلناها قرب الزوال بمنزل الركب . وتاجورة بوزن : باكورة . قال التيجاني :

" وهي قرية عامرة ، وبها قصر متسع يجتمع على دور كثيرة . وفي وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناءً يقال إن حميد بن جارية ابتناه وشارك فيه بنفسه ليحرّض أهل الموضع على إتمامه– وهو الذي عمّر هذه القرية ونقل إليها أهلها من أرض هنالك تعرف بأرض عبد الرب– وكان ابتداء عمارتها في عام خمسين وخمسمائة . وهم يدعون أنهم من العرب ، وينتسبون إلى تميم ، ويذكرون أنهم سكنوا الأرض المعروفة بأرض عبد الرب من حين الفتح الإسلامي ، ثم نقلهم منها حميد إلى هذه القرية " . قال : " وبتاجورة السّفرجل الذي لا يوجد في بقاع الأرض مثله " (وليس يقرب منه إلا السفرجل الموجود بنفزاوة)[1] .

---

[1] ساقطة من ت.

الحاجية

قلت :

والذي نعرفه في ضبط هذه البلدة : تاجوراء . كعاشوراء .

ذكر بعض أهل المحبة بتاجوراء :

وأكرمنا إخواننا أهل تاجوراء- كثر الله خيرهم ووقر جمعهم- وفيهم جماعة من الطلبة والفقهاء ،منهم:العالم المدرس سيدي عبدالرحمن اعمار ، به لقب ، وهو المقدم على من بها من أهل نسبتنا . وصنوه الفقيه سيدي عبد الله . وسيدي محمد مراد ، وسيدي أحمد -خاله . والحاج محمد عمار وسيدي علي المياس.وسيدي علي الصغير.وسيدي الحاج محمد بن راشد . والفقيه القارئ سيدي علي بن سعيد.وسيدي محمد بن مسعود.وسيدي الحاج محمد ماطوس[1].وسيدي محمد بن أبي غرارة.والفقيه سيدي رمضان اخليشي.وسيدي عبدالسلام الشلوكي.والفقيه المسند سيدي محمد كرموص. والفقيه القارئ سيدي علي كرموص .والشيخ المسند سيدي محمد اغرس . والفقيه القارئ سيدي علي اغرس . والفقيه القارئ سيدي محمد سلام[2] . والفقيه العالم المدرس سيدي عبدالعزيز مروان . والفقيه القارئ الطالب سيدي الحاج رمضان فارس . والفقيه القارئ سيدي خليفة بن كموش . والفقيه سيدي محمد بن عون . وسيدي عبدالله ابن عمر . والفقيه القارئ سيدي علي بن سالم .والفقيه الطالب سيدي عبدالحفيظ القارئ . والحاج أبو بكر بن الشيخ.والفقيه العالم المدرس سيدي محمد بن الشيخ .والفقيه القارئ سيدي محمد بن أبي سعد .وسيدي عبدالله .وسيدي عبدالجواد.وسيدي محمد الشريف . وسيدي محمد بن سعد . وسيدي محمد بن إدريس . وسيدي علي كرم . والمحب الصادق سيدي محمد بن الحاج محمد بن أبي الخير . وجماعة من الناس نحو ستة عشرة . وبالغوا في إكرامنا- تقبل الله منهم- كالمرة قبل هذه .

---

[1] ت: ما طلوس.

[2] ف: أحمد.

وأقمنا بها السبت والأحد والاثنين . ولحق بنا الركب المغربي ، واستفدنا منه أخبار الحرمين الشريفين ، وأكثر الناس من الجمّالين القادمين معهم بعد أن يئسوا من الكراء ثم ظعنّا بعد صلاة الظهر يوم الثلاثاء ، ثاني رمضان ، ونزلنا غافق بعد العصر . قال التيجاني :

" وهو قصر خرب خالٍ من العمارة " . أ هـ .

وبه الآن بئر غزيرة الماء ينزل إليها بالدرج وماؤها لا بأس به .

ثم ارتحلنا منه ، ومررنا بوادٍ يقال له (وادي الرمل) . وهو وادٍ متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه صيفاً ولا شتاءً . ومبدأه من الجبل قاطعاً إلى البحر ، لابد لكل مشرّق – يجعل الجبل يمنته –أو مغرّب–يجعله يسرته – من قطعه . وهو واد مخصب من أعلاه ، فيه مزارع ، تخرج إليه ماشية أهل طرابلس وسراحها أيام الربيع[1] ، وربما أخرج إليه الحجاج إبلهم مع رعاتها– إن طالت إقامتهم بطرابلس–. وأمّا ماؤه فمن عيون تنبع في أثنائه، تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل ، فتجري قليلاً ثم تنقطع ، ثم تبتدئ بعدها عيون أخرى ، فينتهي ماؤها إلى البحر. ولا يعم الماء جميع الوادي إلا في وقت الأمطار وعند نزول السّيول من الجبل . قال التيجاني:

" عند سفح الجبل قصر يعرف بـ(صيبار) بكسر الصاد المهملة ، تليها ياء معتلة ، ثم باء مفردة ، وهو معمور " . قال : " وبقرب البحر – في أسفل هذا الوادي– بئر تعرف ببئر (طشّانة) بضم الطّاء وتشديد الشيّن المعجمة– بازاء قبر يعرف هذا الموضع به فصار القبر اسماً علماً له . وهو لرجــل من العرب من ذباب ، ثم من بني عيسى منهم ، واسمه : شهــران بن عيسى بن تامر بن حافر ابن فايد بن رافع بن ذباب . وكان هذا الرجل ذا رئاسة في قومه وصيت بعيد ، واشتهر بالكرم فلم يذكر معه في وقته غيره . وفيه يقول شاعر العرب :

---

[1] ف: وسواحلها.

الحاجية

(حما الأرض شهران بن عيسى بن عامر

وعرض الفتى إن ضيع المجد تالف)

والأعراب الآن إذا نزلوا هنالك ولم يكن لديهم زاد قاموا على قبره فنادوه : (يا شهران بن عيسى أقـــر أضيافك !) فيذكرون أنهم لم يبيتوا قط دون عشاء ، إما بصيد يتاح لهم أو بضالة يلقونها أو غير ذلك " .

قال :

" وهذا الأمر حدثني به جماعة منهم . وهو مشابه لما يذكره المؤرخون عن حاتم الطائي من أنهم كانوا ينزلون بقبره فيقريهم . وفيه يقول شاعرهم يمدح عدي بن حاتم :

أبوك أب سباقة الخير[1] لم يزل لدن شب حتى شـــاب في الخير راغبا

قرا قبره الأضيـــاف إذ نزلوا به ولم يقر قبر قبله الدهر راكباً "... [2]

ومررنا بعد ذلك بوادي المسيد . وهو كالذي قبله أو أخصب منه ، وماؤه ماء غزير لا ينقطع صيفاً وشتاءً ويكثر في أوقات السيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها . وجاوزناه بأميال كثيرة ، وبتنا غربي تورغت . وبهذه المراحل شجر العشر (كصرد/ القاموس) فيه حراق ، ولم يتقدم الناس في أجود منه ، ويخرج من زهره وعشبه سكّر معروف ، وفيه مرارة . قال التجاني :

" شجر ناعم النبات ،شديدة الخضرة،إلى السواد مائل.هو ينبت صعداً، وله أوراق عظيمة ونور مشرق حسن المنظر كنور الدفلى .وثمره أخضر كالأترج تملأ الواحدة يد حاملها ،وهي مملوءة بشيء يشبه القطن تسمّيه

---

[1] في رحلة التجاني: أبوك أبو سفانة الخير.

[2] الفقرة المحذوفة استطراد من ابن ناصر وحديث عن حاتم الطائي.

العرب الخُرْفُع[1] – بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الفاء– ربما حشيت منه المرافق والوسائد " .

قال :

" وأخبرني من أثق به أنه رأى ثياباً صنعت منه" .

و(هذا الشجر) لا يأكله حيوان، وهو شجر كثير اللبن ، وليس شيء من الشجر على اختلاف أنواعه أكثر لبناً منه [2] . ويجنى منه مغافر (واحدها مُغفور– بضم الميم) وهو صمغ حارّ كريه الرائحة يقال له سكر العشر . وفي الحديث : (أكلت مغافر) وهو من هذا .

ولا تكون المغافر إلا فيه وفي العرفط والرمث والتمام– أكثرها مغافر. وليس في كلام العرب مُغفور[3]– بضم الميم– إلاّ مغفور هذا ، ومُغرود– بالغين المعجمة– لضرب من الكمأة ، ومُنخور ، لغة في المنخر . ومنابت الشعر بالقيعان وبطون الأودية وقد ينبت بالرمل . قال ابن البيطار في (أدويته) :

(ولم أر شيئاً منه في الأندلس . وأول ما أوقفت عليه بظاهر طرابلس المغرب بالجهة الشرقيّة منها . " يشير إلى هذا الموضع ") . ثم قال : بعد ذلك رأيته بديار مصر بظاهر القاهرة) " . أ هـ . كلامه .

قلت : وكذلك بأرض الحجاز ، وببلدنا . وأول ما وقعت عليه عيني برملة غربي تاجوراء شرقي السبخة والله أعلم . ثم قال التيجاني :

" وكانت العرب تستجلب المطر إذا احتبس عنهم يشجر العشر وشجر السلع– بفتح السين واللام " .

---

[1] يقول الشيخ الطاهر الزاوي في (معجم البلدان الليبية) أنه ما يسميه أهل طرابلس (البرنبخ) . وفي هامش ف : هراف- مثل القطن في الليونة.

[2] في ت وليس شيئاً من اللبن أعلى اختلاف أنواعه أكثر لبناً منه.

[3] ف : مفعول.

الحاجية

قلت : وفي القاموس : السلع- بحركة- شجر مرّ أو سمّ أو ضرب من الصبر وهي بقلة خبيثة الطعم . قال : يعمدون إليها فيأخذون منها أغصاناً ويجعلونها في أذناب البقر ويشعلون النار فيها . ثم يصعدونها إلى الجبل فيزعمون أنهم يمطرون في وقتهم ، ومنه قول أمية بن أبي الصمت :

سنـــة أزمـــة تخيـــل بالـــناس ترى للعصـــاة[1] منـها صريراً

لا على كوكب ينوي[2] ولا ريح جنوب ولا تـــرى طخـــروراً

ويسوقـــون بالقرا السهل للطود مهازيـــل أوشكـــت أن تبـــورا

عاقدين النيران في ثكن الأذناب منـــها لكي تهيـــج الطـــخورا[3]

سلعامـــاً ومثلـــه عشـــرامـــاً عـــأيـــلاماً وعـــالت البيقورا

تخيل للناس:أي تطعهم بالمطر، والطخور:القطعة من السحاب- بالخاء المعجمة وبالحاء المهملة. والبيقور:جماعة البقر. وهو ضرب من السح. ولله در القائل يعيب عليهم فعلهم- انظر شعره :

(لا در در رجال خاب سعيهم يستجلبون نزول الغيث بالعشر

أجـــاعل أنت بيقوراً مسلعـــة وسيلة لك بين الله والمطـــر؟!)

قلت : هذا من جهل العرب ، وهو كثير .

ونزلنا تورغت قبل الاصفرار.وبها بئر عذب حفرها الأخ في الله عبدالسلام بن عثمان ، وغرس عليها شجرة من شجر التوت يقصدها أبناء السبيل ، يشربون من ماء البئر ويستظلون بظل الشجرة- تقبل الله منه وشكر سعيه . وقد صدق في ذلك ، لكون المحل معطشة في زمن القيظ .

غريبة :

وذكر شيخنا العياشي في (رحلته) قال :

---

[1] ف: للعضاة.

[2] ف: يلوح.

[3] ف : تهيج البحورا

الحاجية

" أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة القدس محمد النفاتي التونسي ، أيام لقائي به بالقدس الشريف ،أنه حجّ في صغـره مع أخيه أبي الحسن النفاتي أمير الركب . فمرّوا بهذا المكان في زمن القيظ . فألجأهم إلى بئر في وادي ينوت " .

(قال التيجاني : بضم الياء المعتلّة وبنون والتاء المثناة الصحيحة . قلت : وهو وادٍ ينزل من جبال مسلاتة وعليه مزارع الآن . ماؤه قليل يسقى منه الركبان إن استظهرهم العطش إليه في زمن الحر . وعلى يمنى الذاهب داخلاً في أصل الجبل قليلاً) .

قال:"فنزلوا عليها قائلة ووافتهم هناك قفول قدمت من فزان ، حاجتهم مثل حاجتهم . فذهب الناس إلى البئر فنزحوا ما فيها من الماء فلم يشف بعض أوانيهم . ورجع الناس مقسومين . فمن قائل : نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك ، ومن قائل : نؤخّر إلى آخر النهار . قال لي الشيخ : فدخلت على أخي فأخبرته بذلك ، فقلت له : إن الناس قد أشرفوا على الهلاك واضطرب أمرهم في الرحيل، فمرهم بالرحيل لئلا يهلكوا . قال : فاغتم لذلك واستند في خبائه كالنائم . فلما أفاق قال لي : نادِ في الناس بالإقامة وقل لهم يذهبوا لسقي الماء . فلما سمعت ذلك استحييت وتغيبت . فأقام الناس وذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد يفيض من جوانبها ، فاستقى الحاج وجميع القوافل حاجتهم والماء كما هو . قال لي الشيخ : فلما رأيت ذلك ذهبت إليه وقصصت عليه الخبر فقال لي:إني لما أغفيت عندما أخبرتني بخبر الناس رأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : مُر الناس بالإقامة . فعلمت أنه سيجعل الله لهم من أمرهم فرجاً . قلت : ولا يستبعد هذا في حق وفد الله وزوار النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الله به عناية ولهم منه أعظم وقاية . ولقد أخبرني عن أخيه بأمور من جنس هذا في سفرته تلك ،وفيها توفي بقرية الينبوع التي ينزلها الحجاج،وقبره إلى الآن ظاهر عليه بناء خفيف بتل مشرف بحذاء منزل الركـب المغربي بالينبوع . وكنا نـزور ذلك المحـل ولا نعلـم من دفـن فيـه حتى أعلمني به

القاضي المذكور . والله يتغمدنا وإياه برحمته . تغمدنا الله- في الدنيا والآخرة- بجزيل نعمه . آمين ". ا هـ .

ولم نزل نسير يومنا ذلك في أرض ذات غياض وشعوب متوعرة حتى وصلنا ماءً بخليج غادرته السيول . وسقى الناس دوابهم واستقوا . ووجدنا مبيت الركب المغربي في سفح جبل النقازة[1] - بقاف معقودة- تحت العقبة . وهنالك تسوق أهل مسلاتة الركب ، فأتوا بزيت كثير طيب رخيص . وربما تسوقهم على ظهر[2] فتشتري الناس منهم حاجتهم . وزيت هذا البلد من أطيب الزيوت مذاقاً . سيّما ضرب منه يسمونه (ضرب الماء)- يعصرونه بالماء ولا أدري كيف يصنعون ذلك - لا تكاد تميز بينه وبين السّمن . إلا أننا في سفرتنا هذه ما تسوقنا لأنّنا مررنا بالموضع مع العشي ، وصعدنا العقبة . وقطعنا الجبل ، وهو منتهى الجبال بتلك البلاد . قال أبو سالم في (رحلته) :

" وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولاً وعرضاً وحصناً وماءً وقرىً متّصلة وعمراناً متراكباً من قبائل وافرة ، غالبها البربر ، أوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى ، ثم يمتد ذلك إلى أن يمر بقبائل مراكش ، وهو المسمى جبل درن . ثم يمتد كذلك إلى بلدنا ، ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان ، ثم لم يزل يساير البحر وإن كان بعيداً منه في بعض المواضع ، ويسمى في كل بلد باسم وربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم إلى أن ينتهي هنا بأطراف برقة . وقال صاحب (تقويم البلدان) إنّه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة ، وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل . والظاهر ما ذكرناه أولاً ، وهو الذي اقتصر عليه غيره . فغرب هذا الجبل في كل البلاد بلاد مخصبة ذات أنهار وعيون وأشجار .

---

[1] في النسختين: النكازة- بكاف فوقها ثلاث فقط، حسبما ينطقها الليبيون- كالجيم القاهرية- تمييزا لها عن القاف العربية.

[2] كذا في النسختين.

وقبلته صحراء ذات نخيل ورمال ، من أطراف المحيط- من أطـــراف السوس الأقصى- إلى آخر برقة " . أ هــ .

وصعدنا النقازة وبأعلاها وبأسفلها آثار مبنيّة كثيرة عالية ، والله أعلم بحقيقتها الــوارث الأملاك بعد فنـــاء الملاك . ونزلنـــا أعـــلاها قرب الغروب وهو قصر في أكمة ، وبتنا في غوط يمينه . وفي سفح هذا الجبل الذي يلي ساحل حامد مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة ، قد خليت العصور الأوائل وبقيت آثارها ورسومها . قد أكل البحر كثيراً منها ، وفيها مبان عظيمة وهياكل جسيمة وأبراج خارجها مبنيّة بالحجر المنحوت في غاية الإتقان . قد هرم الدهـــر وما هرمت وتعاقبت عليها الأزمنة وثملت . فترى الأبنية متقابلة مائلة على رؤوس الجبال على مـــدّ البصر بحيث يقضي الحـــدس أن كل ما كـــان داخـــلها مدينة واحدة إلى البحر . وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل كثيراً منها . ومن هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وإلى غيرهما من البلدان . ويقال إن بانيها الملك دقيوس[1].وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية. وبعضهم ذكر أن النمرود لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين ، وبعث ولده وأمره أن يبني مدينة بالمغرب ، فبنى هذه المدينة وجلب إليها الماء من وادي كعام في بناء متقن يحار الناظر فيه ، وأثر البناء وممر الماء باق إلى اليوم متصل من جوف الوادي إلى أطراف المدينة. إلا أن ماء هذا الـــوادي الآن قليل جداً . ويزعم أهـــل البلد أن ماء هذا الـــوادي كان حلواً غزيراً أيام عمارة المدينـــة ، وكان مما يؤثـــر عند أهلها أنه إذا ابتدأت الملوحة

---

(1) دقيوس، ويسمى أيضا: دقيانوس، ودقليانوس. هو عند العرب بمثابة الإمبراطور جستنيان الذي عرف بكثرة عمائره ومبانيه. راجع: نصوص ليبية؛ نصوص من برو كوبيوس القيصري- للمحقق. وفي كتب التفسير يرد عادة اسم دقيوس (أو دقيانوس) في قصة أصحاب الكهف، ولعل المقصود هو الإمبراطور Decius Traianus الذي تولى الإمبراطورية بعد فيليب العربي من عام (249-251م). وكان معروفاً أنه أول من نظم اضطهاد النصارى رسمياً وجعل الدولة تتولى تعذيبهم وإرجاعهم عن دينهم قسراً.

في ماء الوادي فذلك من علامة خرابها . فلما بدت الملوحة فيه أخذ أهلها في الانتقال منها ، والله أعلم أي ذلك كان .

وقد ذكر العبدري في (رحلته) هذه المدينة ، وذكر أنه وجدها خالية . والذي يظهر أنها خلت قبل الإسلام ، إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح أفريقية . والله أعلم بغيبه .

غريبة :

أخبرني بعض أهل ذلك البلد أن الملك الذي بني هذه المدينة وقع موتان في عسكره ، حتى تفانوا ، ولم يدر ما سببه . وأمر بشق واحد منهم وشق عن قلبه فوجد فيه دودة ، فعلم أن ذلك سبب موتهم . وأمر بصب جميع الأدوية عليها واحداً فواحداً فلم تمت ، أخرجوا زيتاً كان عنده في قارورة جاء به من أرض الشام ، فصب عليها قطرة من زيت فماتت ، فعلم أن دواء ذلك المرض بأكل الزيت . فبعث إلى الشام وجاء غرس الزيتون فأمر بغرسه في تلك الأوطان كلها – من مصراتة إلى سوسة وتونس وأعمالها . ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد . والله أعلم " . انتهى كلامه .

ولم نمر في هذه الحجّة على هذه المدينة ، ومررنا بها في حجّة ستة وتسعين ورأينا بها العجب العجاب ، وموعظة وذكرى لأولي الألباب ، بنوا للموت وأبقوا للخراب ، فكلهم يصير إلى الذهاب .

ثم ظعنّا منه ، ومررنا بساحل حامد . وتعرض لنا الأخ في الله سيدي أحمد ابن شحاته ، وراود نزول الركب لديه ، وامتنعنا لعسر الوقت . وذكر أنه لا خبرة له بنا[1] . واسترحنا معه هنيهة . وأمر بالرطب فأحضر . وبعد حين جاء بشيء من البلح الحلو وأعطيناه لمن حضر معنا من أهل الركب – تقبل الله منه .

---

[1] يعني لم يكن لديه خبر بقدومهم.

الحاجية

وكان من عادة هذا السيد أن يتعرض للأركاب ويطعمهم العصيدة ، فالله ينفعه بنيّته .

وبلدة ساحل حامد بلدة كبيرة ذات نخيل كثير ومزارع وأسواق وزيتون، إلا أن نخلها ردئ التمر- كتمر الساحل كله- لا يدخر ، ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه ، فيبقى كقطع الجلد لا قـوة فيه ولا حلاوة ولا طعم . قال الإمام أبو سالم :

" لا تكاد تفرّق بينه وبين لحاء الشجر " .

قلت :

وفيه تمر جيد ، يجعلونه في مساليخ ، وأما جلّ ما يتسوقون به فكما قال . وبهذه البلدة قبر الولي الصالح سيدي مفتاح . وهو على تل مرتفع على ساحل البحر بينه وبين البلد ، في موضع يعلوه البهاء ويتفجر منه السناء ، تسكن النفوس إذا حلت به وتطمئن القلوب إذا نزلت بقربه . وهذا السيد ممن تؤثر عنه الكرامات الكثيرة ، وجرّبت إجابة الدعاء عند قبره . فلا ينبغي لمن مرّ بذلك البلد أن يهمل زيارته . وقد قيل : إنّ قبره كان مخفيّا وأظهره سيدي عبدالسلام الأسمر- وكان قد أظهر قبوراً كثيرة للأولياء بذلك الساحل- وأظهر فرسُه أيضاً آخرين . وذلك أنه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فنضحت في الأرض برجلها ، فيقول لهم الشيخ :(أحفروا ، فإنّ هنا قبر ولي)- فيجدونه . فظهرت بذلك مزارات كثيرة. وفقراء الساحل يعرفونهم ويقولون من الذين أظهرهم فرس الشيخ . ولا بدعة في ذلك، فإنّ الكرامة في ذلك لراكب الفرس لا للفرس . فقد بركت ناقة النبي- صلى الله عليه وسلّم- في مكان مسجده . وعندما دخلت الحرم يوم الحديبية . وإذا كانت بركة النسبة للأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وللأولياء- رضوان الله عليهم- تظهر آثارها في الجمادات ، فما بالك بالآدمي الذي هو أشرف المخلوقات . فلا تقصروا- إخواني- في

خدمة الصالحين ، وزيارتهم ، وملاقاتهم ، فإن لذلك أثراً عجيباً في تليين القلوب وتسخير النفوس . والله- تبارك وتعالى- يجعلنا من المُحِبِّين لأهل ولايته ، ويحشرنا مع حزبهم وفريقهم في دنياه وآخرته .

وبإزاء روضة هذا السيد بئر عذبة الماء باردة . وكنّا زرناه في حجّة ستة وتسعين مع جماعة وافرة من أصحابنا- تقبل الله منهم- وسنزوره- إن شاء الله في هذه السفرة .

ومررنا على آثار ساقية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة في عين يقال لها (عين كعام) .. صنعة عجيبة وأبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة ، تحار فيها العقول ، من حجارة من أربعة أذرع فأكثر ، منقورة في وسطها نقراً متقناً ، والحجر في غاية الصلابة ، قريب من نقر الصوان . قال شيخنا العياشي :

" والحاصل أن من رأى استغرب أن تكون قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار ، وعلم أن دهراً أفنى أولئك الأقوام جدير بأن يستأصل شأفة الأنام " .

ثم نزلنا غربي ازليتن[1] قرب الغروب على حد سبخة في شقة النخل فتلقانا الأخ سيدي علي بن عبد الصادق في جماعة من طلبته ، وشيعنا ، وبات معنا ، وبالغ في القِرَى . وأحضر تمراً وشعيراً وخبزاً ودجاجاً ولحماً ودلاعاً ، كثّر الله خيره . وهذه البلدة مثل التي قبلها في النخيل والسواني إلاّ أنها أصغر منها- فيما يظهر .

ثم ظعنّا . وتعرض أهل البلد الركبَ بالشعير والثياب ، ونال الناس حاجتهم وكفايتهم . وطشّت السماء علينا طشّاً ، فلم نصل لزيارة ولي الله ، سيدي عبدالسلام الأسمر، حين وازينا بلده- حتى نرجع إن شاء الله . وهو رجل- كما قال في رحلته شيخنا أبو سالم- من أهل المائة العاشرة ، كثير

---

[1] ت: اجتليق.

الحاجية

الكرامات ، عالي المقامات ، من أجلّ تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس . والغالب عليه الجذب في أول أمره وآخره ، وله تصرف قوي ، ويؤثر عن أهل البلد من تصرّفاته آثار كثيرة يطول ذكرها . وأخبار في قهر الجبابرة وفك الأسارى من أيدي الإفرنج- في حياته وبعد مماته- شهيرة . وهو من بلد يقال لها (الفواتير) وأمّه مغربيّة درعيّـــة . ولم تزل هذه البلد- التي هو منها- مأوى السائحين ووكر العابدين . ومن قديم الزمان تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين . قالوا وهم ظاهرون فيها حتى الآن . وليس عليهم سمة مفتقرة الوقت ، بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم ، إلا أنهم قائمون على منهج الشريعة . وكل من رام أهل هذه البلدة بشيء يسوء يقصمه الله تعالى . ولا يدخلها أحد بزهو وتكبّر إلا أذله الله . ويذكر عن أهلها كرامات كثيرة .

قال :

" وقد ذكر لي بعض الأخوان أن سيدي عبدالحفيظ قدم لزيارة أهل هذه البلدة ومعه بشر كثير ، كما هو شأنه إذا خرج . فلما قرب من البلد نزل عن فرسه ومشى راجلاً متواضعاً إلى أن زار وخرج . فقيل له في ذلك فقال : لو دخلتها على الحال التي كنت عليها خارجاً ، من الركوب وهيئة التبرج ، لخشيت على نفسي . أو كلاماً هذا معناه .

وبلـــدة الفواتير بإزاء زاوية سيدي عبدالسلام ، قريب منها بنحو فرسخ ، وفيها مزارات كثيرة للأحياء والأموات " .

لطيفة

ذكر الإمام العياشي في (رحلته) :

" أنـــه أخبره أخـــوه في الله المجـــذوب السالك سيدي أحمد بن محمد

أبو نجيب[1] أنه لما حجّ بقي أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال في نفسه :أنّي لا أذهب لزيارة حمزة ولا غيره . هذا يكفيني .(قال): فأخذتني سنة من النوم ، فرأيته عليه السلام وقال لي : يا أحمد يا حبيبي! عم الرجل عوض أبيه . قال : فقمت في الحين وذهبت لزيارة سيدنا حمزة وحـــدي ، وكان وقت خـــوف ، ولقيت هنـــاك ثلاثة رجال أحدهم الخضر- عليه السلام " .

وممن لقيته من أهل هذه البلد في حجّتنا قبل هذه صاحب سيدنا الوالد . وسلك بنا طريقه في إتباع السنة بالنبي عليه السلام وصحبه ، سيّدنا محمد بن سالم الأملتيني[2] . وأطعمنا وفرح بنا غاية الفرح . وأثر الصلاح على وجهه يلوح ، وعرف الفلاح من بشره يتضوع ويفوح . وسيدنا الولي الكامل سيدي أبو العباس أحمد زروق[3] ، وكان يكاشف ولم ندركه في حجّتنا هذه ، (إذ) توفي- رحمه الله- قبلها .

نادرة :

وكان سيدي عبدالسلام الأسمر ، الشيخ الأكبر ، يستعمل السماع بالدف إلاّ أنه -رضي الله عنه- كان ذا حال صادقة لا يقتدي به في ذلك . وأراد المنتسبون إليه اقتفاء آثاره، وفي ذلك فحقهم اتباع السنة واجتناب مواقع الظنة، وليست الأحوال مما يورث ولا مما يصح فيها التقليد، لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالاً جبريّاً ، فليس لغيره إتباعه في ذلك إن لم تظهر له موافقته المشروع .

---

[1] عند العياشي (بو مجيب).

[2] كذا في النسختين.

[3] هو غير أحمد زروق، الصوفي الأشهر دفين مصراته، المتوفي (899هـ) بل لعله سميه قارن ما يذكره المنالي في رحلته عن أحمد زروق آخر وجده في زاوية زروق بمصراته عام)1158هـ).

ومما يحكى من ذلك عن الشيخ سيدي عبدالسلام أنه سمع ذات يوم بالدف . فلما نقره سمعه كل من حضره له يقول : (الله! الله!) ، بحيث لا يمترون في ذلك . قاله في (رحلته) شيخنا أبو سالم . قال :

" وهذا شاهد صادق في صحة سماعه وصدق حاله مع الله . ومثل هذا له أن يسمع بأي شيء أراد من دف ومزمار، لانقلاب سيمة الملاهي في حقه درياقاً . فعادت المخالفة للمشروع بانعكاس الثمرة وفاقاً . فسبحان من يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن بين الـــدف والمزمـــار أحوالاً سنية للمقربين " .

وكان حجّ مع شيخنا الوالد- رضي الله عنه وأرضاه- بعض أهل زاويته- وكان يسمع بالدف على عادتهم- فبعث إليه الشيخ فقال له : (إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السمع ، وإلا فاعتزلنا) فأبى وقال ؛ إن ذلك كان من عادة أسلافه . فلم يقبل الشيخ منه ذلك ، ولم يزل به حتى ترك السماع.....[1]

ثم ظعنّا من هذه الدار ، ونزلنا غربي مصراتة بين العشاءين . ومن الغد ارتحلنا ونزلنا خارج قصر أحمد ، يوم الأحد ، بالسبخة بطرف البلد بإزاء روضة أبي شعيفة ، بين الظهرين سابع رمضان . وملنا- مع جماعة من أصحابنا- لزيارة الشيخ المحقق العالم العلامـــة المدقــق العـــارف بالله ، الـــدال على الله ، صاحب العلمين ، ومحقق الناظرين ، ومحل المذهبين ، ومرتضى الفريقين ، ومقتدى أهل العلم الباطن ، ومتبوع أهل الظاهر ، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر ، قطب مغربنا ، وإمام أئمّتنا ، سيدي أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي- حقق الله إليه نسبتنا وخلص في محبّته سريرتنا- آمين ! وزرناه بمقتضى الوقت من أدب ووقار ، وذلّ وانكسار ، عند استواء الشمس ولم نعرج على سواه وخرجنا آيبين إلى موضع الركب ، وصلينا به الظهر .

---

[1] الفقرة المحذوفة استطراد وبحث في السماع من الوجهة الصوفية والفقهية، خارج عن سياق الرحلة.

الحاجية

نكتة :

ذكر شيخنا الإمام أبو سالم في(رحلته) أنه التقى مع خديم ضريح الشيخ ومتولي زاويته ، سيدي أبي العباس بن أحمد بن عبدالرحيم بن أحمد ، وجدّه هذا أحمد – قال– هو خديم الشيخ ، وهو الذي بني المسجد الذي هو اليوم على ضريح الشيخ ، وتولى عمارته والقيام به ، ثم أولاده وأحفاده بعده إلى هلمّ جرّا . قال :

" والمتولي الآن هو سيدي أبو العباس وابن عمه سيدي عبد الواحد ، وهو أسنّ منه ، وكلاهما لا يخلو من بركة . وهما ملازمان للصلاة بجوار الشيخ وقراءة (وظيفته) مع الفقراء النازلين بجواره . والكل محترمون بحرمته ، ليس عليهم مثل ما على غيرهم من الوظائف الجَوْرِيّة لأرباب الدولة . وقد قرأت معهما وظيفة الشيخ غير ما مرة ، وأخبرني بها عن سيدي محمد بن غلبون– وكان قد أسنّ وقرب من المائة أو تجاوزها . ومسكنه بقصر أحمد ، على نحو فرسخين ومع ذلك لا يترك الجمعة بمسجد الشيخ . وأخص أصحابه وتلامذته سيدي أبو زعامة ، وفيه يقول– رضي الله عنه– مداعباً وممازحاً– ومزاح الأولياء حق– :(يا أبا زعامة.. يا عنق الحمامة ! أبشر بالسلامة ، يوم القيامة !) فهنيئاً له أعظم البشارات على لسان أصدق أهل الإشارات " .

قال : " وقد أخبرني بهذه الحكاية السيدان المتقدمان كلاهما ، وأذنا لي في قراءة (الوظيفة)مدرجاً فيها قوله :(يا مولانا يا مجيب!من يرجوك ما يخيب . أقض حاجتنا قريب . يا حاضر لا يغيب .. الخ– بعد قوله:يا عالم السر منا!...الخ).وأخبرني أنه لم يكن من كلام الشيخ وإنما زاده تلميذه الإمام الخروبي لما مرّ بأهل زاوية الشيخ قاصداً الحج ، واشتكوا له من ظلم الأعراب ، فأمرهم بزيادته وإدراجه في (الوظيفة) ، واستمر عليه إلى الآن . وكثير من الناس يظن أنه كلام الشيخ– رضي الله عنه– والصحيح ، إن شاء الله ، ما ذكرناه ، إذ لم نجد هذه الزيادة في النسخ

الصحيحة المتّصلة السند والرواية بالشيخ ، ولم يذكرها الخروبي في كتابه (كافية المريد) " .

قال :

" وأصح الطرق التي رأينا في هذه الزيارة طريق شيخ والدنا سيدي أحمد أدفال ، إلا أنه قال أنّه أخذها عن شيخه بركات الحطاب بالإجازة واجتهد في تصحيحها بالنسخ بعد ذلك ، حسبما رأيته بخطه آخر نسخة من (الوظيفة) ، رضي الله عنه... آمين " .

قال :

" وقد أخبرني سيدي أبو العباس المذكور أن جده الأعلى ، سيدي أحمد ، الذي كان خديم الشيخ ، قال في حياته : (ألا نبتني هنا زاوية ونتخذ لها أوقافاً ؟) فقال له : (يا أحمــد ! نحــن لا تفــوح رائحة مسكنا إلاّ بعد ما نسوّس تحت التراب !) ثم بعد موته وكثر الواردون والزائرون وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها بني تلميذه المذكور المسجد بإزاء قبره وسكن عنده ، بعد موته بعشرين سنة . وقد وجدت عند هؤلاء الأخوين جزءاً من (شرح الرسالة) بخط يده- رضي الله عنه " . أ هـــ .

فائدة :

لما كنّا بروضة الشيخ- حجة ستة وتسعين ألف- خطر ببالنا ما سبب سكنى هذا الإمام الأعظم والشيخ المكرم بهذه البلدة البعيدة عن المدن والحواضر . فنطق أخونا في الله سيدي عبد الله بن غلبون ، وكأنّه كان مطلعاً على ما في ضمائرنا - والله أعلم بذات الصدور- فقال : (سئل الشيخ- رضي الله عنه- عن سكناه في هذه البلدة فقال : أما ما ذكرت من استيطاننا في هذه البلاد فأمر خارج عن قياس النظر ، غير مصحوب بالجزم ولا معقود لشيء نعلمه ، بل اتفاقي ظهر وجوده فلزم موجوده إلى ما يقتضيه الحق .

الحاجية

وما أنا بالباغي سليمي بديلة بليلى ولكن للضرورة أحكام !)

ولعلّ فائدة استيطانه هذه البلدة- والله أعلم-استئناس الأركاب بزيارته ، واستمدادهم من معونته ، وتقوّيهم على ما هم بصدده بمطالعة حضرته . وقد شاع عن الحجّاج أن من مرّ بقبره وأودع الله عنده نفسه وماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع . ويفعلون ذلك إذا مرّوا به في البر أو حاذوه في البحر ، فيجدون بركته . ولا بدعة في ذلك ولا غرابة ، فإن الله تعالى حفيظ لا تضيع ودائعه ، والأولياء أبواب الله ، فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبوابه فكيف لا يحفظ ؟ (وَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

وأطلعنا أصحابه هنالك على نسخة من شرحه على(الرسالة)[1] بخط يده الكريمة،وعلى وصيّته على أولاده لما حضرته الوفاة . نفعنا الله به- آمين.

فائدة :

قال أبو سالم في (رحلته) :

" وقد وجدت ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدة أولاده ونسائه ومن خلفه من بعده وعدد متخلفه من الكتب والأمتعة . ولننقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد . منها استفادة عدة أولاد الشيخ وأين استوطنوا بعده ، فإني لم أجد ذلك- بعد الفحص الشديد عنه . ومنها التأسّي به في قلّة ما خلّفه من الدنيا ، مع كونه ذا أولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش ولا يعوزه ما يخلفه لهم إن شاء - لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له ومع ذلك لم يخلف إلا ما ستراه . ونصّه ، بعد الاستفتاح :

(بعد أن توفي إلى عفو الله الشيـــخ الفقيه العـلامة الصالح العارف

---

[1] رسالة بن أبي زيد القيرواني المعروفة في الفقه.

الحاجية

المحقق القدوة المتبرك به، أبو الفضل أحمد بن الشيخ المقدس المرحوم أبي العباس أحمد محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي ، الشهير بزروق – غفر الله له ولوالديه– انحصر إرثه في زوجته ، أمة الجليل ابنة أحمد المكرم أبي العباس أحمد بن الفقيه العدل أبي زكريا يحيى الغلباني المصراتي ، وأولاده منها : أحمد أبو الفضل وأحمد أبو الفتح ، وابنته عائشة ، وزوجته فاطمة إبنة أبي عبد الله محمد الزلاعية الفاسية ، وولدها منه الفقيه الشاب الطالب الأسعد أبو العباس أحمد الأصغر ، وابنه الشيـــخ الفقيه القدوة المدرس أبو العباس أحمد الأكبر ، لا غير في علمهم ، ثم توفي أحمد أبو الفتح المذكور وانحصر إرثه في والدته أمة الجليل وشقيقه أبي الفضل وعائشة المذكورين وأخيه لأمّه أحمد بن الشيخ الفقيه الأسعد الصالح أبي علي منصور بن أحمد بن محمد البجاوي لا غيرهم في علم شهوده . ثم توفيت عائشة المذكورة وانحصر إرثها في أمها أمة الجليل المذكورة وشقيقها أبي الفضل وأخيها لأمها أحمد بن الشيخ منصور . ثم توفي أبو الفضل المذكور وانحصر إرثه في والدته أمة الجليل وأخيه لأمّه أحمد بن الشيخ منصور المذكورين وأخويه لأبيه أحمد الأكبر وأحمد الأصغر المذكورين لا غيرهم في علم شهوده .

وكان من متخلف الشيخ أحمد المذكور : نصف الفرس الشهباء كبيرة السن ، شركة بينه وبين الحاج عبدالله بن عزازة التكيراني المصراتي بالنصف الثاني ، مع برنوس أبيض وجبّة صوف بدن مختم ، مع ثوب بالغزل ، وسبحة قد كان أخـــذها الشيـــخ أحمد المـــذكور من الشيخ سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي اليمني – نفعنا الله به ، آمين– مع أربعة عشر سفراً وكناش .

فمن الكتب في الفقه : من(مختصر ابن عرفة)–رحمه الله–وأسفار في الكبير مع حاشية الوانوغي والمشذالي على(المدونة)، مع سفر (مختصر) الشيخ خليل و(الشامل) للشيخ بهرام–رحمهما الله–مع (شرح ابن عسكر) في الفقه للشيخ أحمد المذكور ، ألفه.ومن غير الفقه:(الديباج المذهب في

تعريف رجال أهل المذهب) لابن فرحون - رحمه الله- ، ومعه تأليف الشيخ أحمد المذكور : (القواعد) في علم التصوف ومعه شيء من علم الطب مع سفر به (قواعد) الونشريشي ، والمذكور شيء من علم الطب مع سفر به الزركشي والسبكي في أصول الفقه و(بلوغ المرام) لابن حجر ، والبلالي ، واختصار (الأحياء) ، مع سفر به (شرح) التفتازاني في أصول الدين ، و(الحكم) لابن عطاء الله ، و(المنهل الروي) في الحديث وغيره، مع سفر في (مصطلح الحديث) ، بخط الشيخ أحمد المذكور ، وتآليف الشيخ عبد الرحمن الثعالبي مع إجازة له ، وشيء من ابن حجر في علم اللغة- رحمهما الله- وسفر به تفسير القرآن و(كناش) يحتوي على وظائفه ، وغير ذلك .

وقد كان استوطن أحمد الشيخ الأكبر ، بعد موت أبيه ، ببلاد المغرب واستقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة- حرسها الله- وأرسل مراسيل للاتيان بالمخلف المذكور بخط يده وثبت منها بالعدالة- حسبما يـأتي بيانه- بأن يوجه له ذلك مع من أمكن . وكان جميع ذلك تحت يد الشيخ منصور المذكور،وامتنع من ذلك لعدم الأمن والأمين حتى وصل الفقيه الطالب أبو العباس أحمد الأصغر المذكور في عام تاريخه لمدينة طرابلس- حرسها الله تعالى- ولم يأت بموجب يقتضى له القبض لذلك لأخيه ، فتوقف أصحاب الشيخ المذكور ، فطلب الشاب أحمد المذكور بأن يعطى ذلك في زمامه يطلب نصيبه ونصيب والدته فاطمة المذكورة ، لكونه وارثها ، ونصيب أخيه أحمد المذكور الأكبر ، فوافقوه على ذلك - بعد ثبوت الإذن المذكور- بأن يعطى ولأخيه ، وحضر لدى شهيديه أحمد المذكور الأصغر نائباً عن نفسه وعن أحمد المذكور، وأشهد أنه قبض جميع المتخلف المذكور، عدا نصف الفرس فإنه قبض ثمن ذلك وهو ثمانية دنانير مشحرة من الشيخ منصور المذكور، قبضاً تاماً ، وأبرأه إبراء،بتاريخ ذي الحجة الحرام ، متمم ثلاثة عشر وتسعمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله) .

الرسم المذكور بحروفه ، من غير زيادة ولا نقصان ، مع وجود بعض

التصحيف به . ولم أغير شيئاً ، بل تركته كما وجدته . ولم أكتب من الرسم الأصلي بل من رسم نقل عنه . والله أعلم " . أ هـ .

ولبعض أهل المحبة في هذا الشيخ من أصحابنا ما نصه (أنظر) :

"ألا أيها القطب الإمام الذي به ... تعلقت الأركاب في البرّ والبحر

ومن بهداه يُهتدى بمفازة ... دليله فيها تائه وهو لا يدري

ومن بحماه يُحتمى لمصيبة ... فتكشف عن قرب وتولى سنا النصر

ومن بسناه استوضح الدين فانثنى ... لدى الكل معروفاً سليماً من النكر

فنشرٌ وتبيان وإيضاح مشكل ... فاضحى سمياً حائزاً طيب النشر

ومن لنداه يمتطى من مطية ... عرائس نصر قد بدا بعده يفري

يشوقها شوق شديد مبرح ... فلا تتقي حزنا كما الحر والصبر

تشير بهاديها لهادي أنمة ... تروم دليلاً معذب الورد والصدر

تقول- وألقت لبّة بفِنائه - ... مقالة مقتول الصبابة ذي خبر

ألا يا أبا العباس أحمد من له ... سميّ من الألقاب يسمو عن البدر

أتيناك نرجو الفوز والفتح والمنى ... ويمناً وتوفيقاً وتصفية السر

وتحسين أخلاق ونور سريرة ... وهدى ذوي التوفيق والصدق والبر

وتيسير مطلوب ونيل مآرب ... وإتقان أعمال كما جاء في الذكر

وتطهير قلب من رياء وسمعة ... وعُجب وخذلان وغل كما الكبر

وتحلية بالصدق والدّين والتّقى ... ومعرفة الرحمن في السر والجهر

وفهم كتاب وإتّباع لسنة ... لدى القول والأفعال في كل ذي أمر

وحفظ لسان من خداع وغيبة ... وزور وبهتان وحفظٍ من الوزر

وكم من شقيّ نال منكم سعادة ... وكم من ذليل نال عزاً ، وفي القبر

وكم جائر رشدت بعد تجبر ... وكم من خلا عمّرت بالدين والخير

وقد طمست أعلامه وتغيبت ... وكان طوياً ، بيّنا أفقر الفقر

وكم من فتىً قد أسعدته يداكم ... فأصبح مجلوّ البصيرة ذا خطر

الحاجية

فيدرك أسراراً ويدري معانيا تدق عن الألباب في أيسر الفكر

ويجني ثمار العلم دون تريث ويفتض أبكار العرانس في قدر

ويبدي عويصاً مُدْنِياً كلّ غامض فأحسن به من سيد ماهر حبر

وكم من فقير جاء مصفرّ راحة فأوليته فتحاً ونوراً على نور

وأغنيته بالله في كل لحظة بحيث يرى المعبود في أنزر النزر

وكم من طريد الباب أصلحت شأنه فأوصلته بالله وهو سنى القدر

وكم خائف أمنته فتعززت أماكنه لا تخشى فاتكة القهر

وكم من عُبيد النفس والشرّ والهوى فصيرته ديانها حائز الظفر

مراق لكم عُليا وأسنى مفاخر لكم من إله العرش من غير ما حصر

ألا يا إماماً حاز كل فضيلة ومنقبة عليا تجلّ عن الحزر

أزروقَ أهل الله في كل برهة ومأوى العفاة في اليسار وفي العسر

أنل شيخنا العزم الإمام ابن ناصر سناً وسُمُواً والمكانة بالفور

فيُلحظ محفوظاً بعين عناية ويحظى من الرحمن باليمن والوفر

يشخص معصوماً من السوء والبلا وسائر أنواع الإساءة والضر

وإيقان أحوال من الصمد الذي له العصمة الشملاء سهلاً مع الوعر

ويفلح بالمطلوب في أي وجهة تيممها قطعاً على أيمن الطير

وخيبة حسادٍ وردّ لكيدهم حبالهم في سعيهم مثلما النحر

فيسمو على الشمس المنيرة في الضحى ويبدو منيراً كي يلوح كما الفجر

ويرقى مقاماً لم ينله مقرَّب من العارفين الزهر في أيّما قطر

وتعنو له الخبراء من غير حلية فيبكت واش ثار في كل ما طور

وقد عرّس الركب المسمى ببابكم ليرجو قرى تقريه من أنفع السر

بأمن وإعزاز وحفظ ونصرة وصحة أجمال من البدو والحضر

وعفو ، معافاة ، وعافية مع السلامة في الأنجاد والوهد والغور

فنتحــف منكــم- والقـــرى- بعزيمة وهمــة جهــد مَعَ تصفية الصــدر
وموت على الإســلام والديــن والتقى وشوق إلى الرحمن من غير ما ضير
فــإن الكريــم لـلمضـيــف معظـم بحسن القرى من سابق،سالف الدهر
فأتحـف إمامــاً حــاز كل مزيــة بولـدان صـدق ، بالصـلاح وبالعمـر
أئمــة أعـــلام ثقـــاة ذوي هـــدى مع العلـم والتحقيـق مع مفخر الذكر
وعـــود على بـــدء إلى الحـرم الذي تسامى إلى الغبـراء بالركن والحجـر
فــلا زلــت للإحســان أهــلاً وموطنــاً ومأوى الخصال الساميات مدى الدهر
عليكــم من الرحمـــن أزكــى تحيــة وأسمى مهابـات إلى الحشــر والنشر
وصلى الذي أولاك مجــداً وســـؤدداً على المنتقى المبعوث للسود والحمر
وآلـــه والأزواج طـــراً وصحبـــه ذوي النّجدة الفيحـاء والسـادة الغر"

وممن لقينا في هذا الساحل من السادات الأمائل:سيدي علي بن شعيب ، من أصحاب سيدنا الوالد- رضي الله عنه وأرضاه عنا.. آمين- وهو رجل من أهل الصلاح لا بأس به ، في حجة ستة وتسعين .

وسيدي فتح الله نجير(قجير؟)[1]التقينا معه في حجتنا مع الوالد، فزاره، وزرناه ، وزاره إخواننا- أصلح الله من حيى منهم ورحم من مات . ووفق ذرية الجميع للخيرات بمنه ويمنه ، وهو من أحفاد سيدي عبد السلام ، وممن ترجى بركاته ووسمه وسم خير.نزل وحده بداره،منقطعاً عن الناس، في نخيل من طرف البلد من ناحية البر. ودفن قرب منزله. عليه روضة . يزار. والمجذوب الصادق سيدي أبو تركيّة. رجل متقشّف لا يؤبه به . قال أبو سالم في (رحلته) :

"أرى أنه لو أقسم على الله لأبره . وهو نازل وحده بساحل البحر ، بأهله . يرد عليه أهل الخير السائحون في الأرض ويدخلون البادية من

---

[1] هذه هي القراءة الممكنة ولعلها: يحيى.

هناك على قدم التوكل قاصدين الحجاز الشريف . فمنهم من يرجع بعد أعوام ، ومنهم من يبقى هناك ومنهم لا يوقف له على خبر . وقد حكى من ذلك من أخبر به شيئاً كثيراً " . أ. هـ .

ولما قربنا من داره حجة ستة وتسعين خرج إلينا يتهادى بين رجليه ، تخط رجلاه الأرض ، فنزلنا من على دوابنا وصافحناه . فقال لي: (أنت يا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر؟) وكرر ذلك مراراً عديدة . ثم بعد حديث وسويعات يكرر ذلك أيضاً مراراً.وكلما قال لي ذلك أقول :(نعم يا سيدي). فضمنّي إليه ضمة وهو يقول:(مرحبا! مرحبا!).وظهر منه السرور والفرح والحبور مالم يظهر من غيره ممن مررنا عليه من أهل البوادي والقصور. وهو في ذلك كله يقول:(الحمد لله ، والشكر لله !اليوم يوم عيد)، وبالغ في الدعاء غاية ،وأخذ بيدي ،وسار معنا إلى مسجد باب داره كان بناه .فدلّنا ، وجلس معنا،ونادى بإحضار الطعام . فأحضر الخبز والعنب الجيّد ، فأوسع الحاضرين شبعاً . وشيّعنا إلى نحو ميل. ومن العجب أنّه لا يستقل على رجليه ، ولمّا شيّعنا كانت له قدرة على ذلك . وما ذلك- والله أعلم-إلا لما غمره من المحبّة. ثم أتانا للركب- قرب الصلاة- بصحفة كبيرة يحملها رجل أمامه،وهو على حمار يقوده به إنسان. وقمنا إليه فقال :(هذا ما تفطر به)- مخاطباً إيّاي- (لما صمتَ ولم تأكل مع الجماعة بمنزلنا).فوضعت الصحفة وبها ثريد ولحم كثير ، وقفة كبيرة من أطيب العنب وأجوده . فقال لي: (كل ، وأمر أصحابك يأكلون).فجلسنا وجلس أصحابنا، فأخذنا في الأكل.فقال،في أثناء ذلك:(كلّ من أكل من طعامي فإنه يجد له- إن شاء الله- البركة).وقال بعض من يدعي محبة الشيخ الوالد-رضي الله عنه: (أدع لي يا سيدي ، فإني أحب سيدي محمد بن ناصر). فنظر إليه ، فقال له:(محبّة الأشياخ صعبة ، قلّ من يقدر عليها).وضرب الصفح عن كلامه، وعدّ هذا من كراماته.ولما فرغ النّاس من الأكل نهض نهوض الصحيح الذي لا بأس به ولا علة وقمنا لوداعه.فقال له الأخ سيدي أحمد الهشتوكي:

الحاجية

(أدع لسيدي أحمد بن ناصر يا سيدي بعمارة داره ، فإنه لا أولاد له . فادع له بنسل صالح وأن يرزقه ذريّة صالحة طيبة).فقال له:(تكون- إن شاء الله- بحيث يرجع- إن شاء الله- ممّا خرج له ، فإن داره تكون- إن شاء الله- عامرة). والحمد الله ، والله أعلم بغيبه وأحكم . وتوفي في عام ثلاث ومائة وألف ، ودفن في موضعه ، وزرناه به . وتلقانا ولده سيدي أحمد أحسن الملاقاة- فالله يوفقه للخير ويعينه عليه ويجعله خلفاً بمنه وكرمه .. آمين .

وأكرمنا من أهل المحبّة أولاد ابن غلبون بسبع أوان من طعام وقفة من تمر وغرارة شعير . وولدا الأخ سيدي على بن شعيب ؛ سيدي أبو مدين ، وسيدي منصور ، بخبز ودجاجة . وسيدي أحمد بن أبي تركيّة بخبز ، تقبل الله منه وأوسعه من الخيرات والبركات ... آمين .

ولما صلينا الظهـــر ، وتلاحــق الركـــب ، واطمأنت بهم الـــدار ، واستقرّ بهم القرار ، ونادى منادي الركب : أن تعاهدوا أسقيتكم ، واملأوا قربكم ، وخذوا ماء خمسة أيام إلى مورد الزعفران ؛ إذ ليس بينكم وبينه ماء إلا ماء العريعير ، على نصف يوم [1] - وقلما يمر به الركب- وبالقرب منه ماء يسمّى (السميرة)[2] هو قليل جداً- وبعده بيوم أو بنصف يوم ماء الهايشة ، وهو أقبح ماء لا يشربه إلا من اضطر إليه . وبعده بيوم بئر حسان ، وقل أن يوجد فيه ماء . ومن هنا يستقبل الحجاج مفازة برقة العريضة الطول والعرض، فلا ترى العمارة من قصر أحمد إلى إسكندرية إلا أن يلقى الناس أحياء من العرب .

ولما تهيّأ الناس وأعدوا ما يحتاجون إليه من الماء ظعنّا بعد صلاة الصبح من أبي شعيفة ، الاثنين ثامن رمضان والأخير من أكتوبر.وبازاء روضة أبي شعيفة المذكور مزارة بمغارة بساحل البحر ، يتعبّد بها

---

[1] ف: ميل.
[2] ت: السميدة.

الصالحون ، لا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها لأنها صغيرة مستقبلة للبحر،يغلب على الجالس بها الحضور- إذ لا يرى إلا البحر ولا يسمع إلا تسبيحه وتحميده لربّه.(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهْ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)- لغفلتكم . ومن امتزج تعظيم الحق بلحمه ودمه ، وأنس بذلك ، سمع تسبيح كل شيء ، إما بحالة أو مقالة . وفي (الفتوحات المكّية) للإمام الأكبر(محيي الدين بن عربي) :

"والعقلاء من الإنس ، أصحاب الأفكار من أهل النظر والأدلة المقصورة على الحواس والضرورات والبديهيات يقولون : لابد أن يكون المكلف عاقلاً بحيث يفهم ما يخاطب به . وقد قصدوا- وكذلك الأمر عندنا- لعالم كله عاقل حي ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التي هم الناس عليها ، أعني حصول العلم بهذا عندنا ، غير أنهم قالوا : هذا جماد لا يعقل ووقفوا عندما أعطاهم بصرهم . والأمر عندنا بخلاف ذلك . فإذا جاء عن نبي أن حجراً كلمه وكتف شاة وجذع نخل وبهيمة ، يقولون : خلق الله فيها الحياة والعلم في ذلك الوقت والأمر عندنا ليس كذلك . بل سر الحياة في جميع العالم وأن كل ما يسمع المؤذن من رطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلا عن علم . هذا عن كشف عندنا لا عن استنباط من فكر بما يقتضيه من ظاهر خفي ولا غير ذلك . ومن أراد أن يقف عليه فليلزم طريق الرجال وليلزم الخلوة والذكر ، فإن الله سيطلعه على ذلك كلـه عيناً ، فيعلـم أن النـاس في عماية عن إدراك هذه الحقائق " . انتهى كلامه .

قال الإمام الاشقراوي في (لوائح الأنوار القدسية) المنتقاة من (الفتوحات المكّية) بعد ما تقدم :

" وقد وقع لي ذلك في سنة سبع وعشرين وتسعمائة ، فسمعت تسبيح الجمادات والحيوانات كلها في سائر أقطار الأرض،وذلك في صلاة المغرب،واستمر ذلك إلى آخر الليل،حتى خفت على عقلي.فسألت الله

الحجاب عن سماع ذلك فحجبه عني رحمة ، وأبقي علي علم ذلك ، وكان من جملة ما سمعت من تسبيح الحيوانات في البحر المحيط : سبحان الله خالق الأرزاق والأقوات والنباتات والحيوانات !"انتهى كلامه .

قال الشيخ أبو سالم :

" وقد أخبرني سيدي أبو تركية أن مفتتح هذه المغارة رجل من العباد اسمه سيدي فرج . وهو الآن بالجزائر ، وكانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها " أ ه .

قلــت :

وزرنا قبل هذه الحجة المغارة المذكورة ، ودلنا عليها صاحبنا سيدي عبدالله ابن غلبون- رحمة الله عليه - وأما هذه المرة فقد عميت علينا علامتها ، ولم نهتد إليها بعد مطلق البحث ، لعدم من يعرفها معنا من أهل البلد . وإنما زرنا أبا شعيفة على تل مرتفع على ساحل البحر ، ثم استقبلنا تلقاء المغارة وتوسلنا إلى الله بمن يأوي إليها من لدن كانت إلى أبعد غاية من العباد والزهّاد ،واعتمدنا على تلك الأقطاب والأوتاد،واتخذنا دليلاً يتقدم معنا إمام الركب،وهو عبدالحفيظ بن أبي غنيمة الضعيفي[1].فدخلنا برقة .

ومر بعض أصحابنا بماء العريعر قبل الظهر،وهو حلو طيّب بين السبخة والبحر.ووردنا ماء السميرة قبل المغرب، وسقينا واستقينا ، وسرنا إلى قرب غيبوبة الشّفق.ونزلنا ثمّ ظعنّا منه ولاحت لنا نخيل تاورغاء وهي بلدة منقطعة أول برقة ، وبها نخل كثير، وتمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل (وإن كان على وصفه من عدم ادخاره إلا بإزالة النوى . وطيبه–والله أعلم)[2]–لبعده شيئاً ما عن البحر ورطوبته، ودخوله قليلاً إلى

---

[1] ف: الضعفي.

[2] ساقطة من ت.

الصحراء ، حيث اليبوسة تستولي على أبدان الحيوانات فضلاً عن النبات . قاله الشيخ أبو سالم في (رحلته)..وماء هذه البلدة غزير في وسط السبخة . وهم ساكنون في الأخصاص ولا يبنون بالطين إلا مواضع الخزين ؛ يبنونها بالطين والأحجار ، يحفرون عليها فيستخرجون من تحت الأرض أحجاراً سوداً . وبناؤهم لا يكاد يتهدم ، وهي واسعة جداً لا يقدر الإنسان أن يحيط بها في يوم واحد . وعينهم غزيرة تسع ألف ساقية- فيما ذكروا . ولا يحرثون حرثاً ولا يغرسون غرساً إلا النخل فقط . وخراجهم للأتراك في كل عام ثلاثمائة وصيفٍ وخمسة آلاف ريال.وهذا العدد الأخير أحدثوه ولم يكن قبل عليهم . وهي إلى الخراب أقرب ، للعداوة المغراة بينهم ، لا تخلو من فتنة وقت الخريف مع تداول الأتراك والأعراب عليهم .

فنزلنا غربي الهائشة بين العشاءين.وبعث الناس دوابهم لتشرب وتسقى. وماؤها ملح أجاج لا يكاد يساغ ، يضرب به المثل في القبح . وليس في مياه برقة أقبح منه إلاّ في مواضع قليلة لا يعتد بها الحاج ، مع أن هذا أيضاً لا يستقي منه إلا من أضربه العطش أو كانت أيام حرّ . وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصب . وبعض أشدّ قبحاً من بعض.

ثم ظعنّا . ومررنا بالهائشة . قال سيدي عبدالله العياشي :

" وهي سبخة مستطيلة ، وعلى جوانبها بناء وقصور خالية ، وفيها نخيل متفرق كأنه رؤوس الشياطين ، لا ترى أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه سيما المعاود (للحج) لما يستشعره بعد من المهامه والمفاوز والمعاطش التي يحار فيها الدليل . كما لا آنس منه ولا أبهى من منظر للآيب ، لدلالته على انقضاء المفاوز وقرب العمارة . ونخله آخر نخل يراه الذاهب وأول ما يراه الآيب " .

قال :

" وبآخر الهائشة وادٍ من الملح ، يجري الماء على أرض من الملح ، فلا الماء يجمد ملحاً ولا الملح يذوب ماءً . وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة الملح " .

الحاجية

ثم بتنا بشرف حسّان ، يوم الأربعاء العاشر من رمضان ثاني نوفمبر . وبين أيدي بئر حسان ماجل منقور في حجر ، تجتمع فيه مياه المطر . فإذا أفرغ منه المجتمع بقيت بقية محله فيرشح بماء قليل ، يجمّ في قعره ، يبلّ به الظمآن فمه . وبإزاء هذا الماجل قرىً خالية لم يبق الآن إلا رسومها ، تسمى (قصور حسان) ، إضافة إلى بانيها ، وكان عاملاً لبني أمية لمّا نقض أهل أفريقية العهد آخر خلافة بني مروان . بني هناك قصوراً وأقام فيها نحواً من ثلاث سنين حتى افتتحها بعد ذلك- حسبما ذكر من أرخ فتوح أفريقية – ويسمّى المكان باسمه إلى الآن ، وقد تقدمت إشارة إلى شيء من ذلك .

ثم (نزلنا) مطراتين[1] يوم الخميس اصفراراً ؛ ساقية غزيرة الماء إلا أن ماءها ليس بعذب ، فسقى الناس إبلهم ودوابهم ، وملأوا أسقيتهم . وهي أول عمالة سرت . واكتفى الناس بما ملأوا منها عن ماء الزعفران لضيق الوقت ، وحيدودة عن الطريق لناحية البحر ، وهي إحساء في ساحل البحر ماؤها طيّب ، وعليها كثبان من الرمل الأحمر تظهر من بعيد . ومن وراء الكثبان–من ناحية البحر–قصور سرت،تخزن فيها الأعراب ميرتها . وهي الآن خالية لا عمارة بها.وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد وأمزاها ، ذات مزارع كثيرة بالبعل وعربها أهل رفاهيّة إلا أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم،ولا يكاد أمرهم ينتظم.ولهم جدار وعقار كثير بساحل حامد[2].ثم قصير الذبان. ثم ظعنّا سحراً ونزلنا تاورغاء[3] مغرباً. ثمّ ظعنّا آخر الليل وبلغنا سحراً موضعاً يقال له النعيم .

وسقى الناس واستقوا ماء خمســـة أيام إلى المنعم . وتسمى هذه المسافة

---

(1) ت: مطرا. ف: مطروا.
(2) ف: ساحل أحمد.
(3) كذا في النسختين ولا شك أنه خطأ أو سهو.

مقطع الكبريت- تغليباً- وإلا فالمسمَّى بذلك موضع واحد . وفي هذه المسافة مياه كثيرة ، إلا أنها تغور في بعض الأحيان . وبعضها أجاج فتحتاط الناس بأخذ الماء الطيب . وهي مفازة قبيحة تهب فيها السموم . وصلينا بها الصبح ، وسرنا بعد طلوع الشمس ، ووردنا على الأحمر ظهراً وسقينا دوابنا وصلينا الظهر ونزلنا القبر (؟) مغرباً .

ثم ظعنّا سحراً ، الاثنين خامس عشر رمضان سابع نوفمبر ، ونزلنا غربي اليهودية[1] طفل العشي- وختم الطلبة السلكة يوم بتنا بالقبر ، كما ختموها بقصر الرمان والشلالات ، وواحدة بين درعة وتافلات . واليهودية قرى كثيرة متقاربات فيها آثار بناء خال يدل على أنها كانت عمارة كبيرة- واشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية في عسكرها كذا من الخيل- قال أبو سالم في (رحلته) :

" وفي (الرسالة القشيرية) عن بعض الفقراء أنه قال : دخلت مدينة اليهودية بأرض المغرب ، وساق الحكاية ...الخ ، ولعل تلك المدينة هذه، إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينة تسمى اليهودية ، والله أعلم بحقيقة ذلك . أ هـ . وماؤه لا فرق بينه وبين ماء البحر " ..

قلت : وبرقة مسافة شهرين من الإسكندرية إلى أفريقية- وكانت متصلة العمارة لا تكاد تسير فيها بريد (فيها)[2] آثار بناء ورسوم عمارة دائرة- وقد جاء الإسلام وغالبها عامر ، ثم لم تزل عمارتها تضعف من هرج

---

[1] يرى محمود ناجي في كتابه "تاريخ طرابلس الغرب" أن هذا الموضع الواقع بين مدينة السلطان ومختار في نواحي سرت هكذا لأن اليهود كانوا يعيشون هناك بعد فرارهم من قورينا وتوزعهم في أفريقيا إثر فشل ثورتهم المعروفة عام (116 ق.م). ويسمى ابن خرداذبة الموقع (اليهوديتين) في "المسالك والممالك" كما يفعل ذلك قدامة في "كتاب الخراج".

[2] ساقطة من ت. وفي ف: (ليس فيه) ولا يستقيم المعنى إلا إذا حذفنا كلمة (ليس) أو قرأناها (ببين). بمعنى (يظهر).

الرعية وظلم بعضهم بعضاً إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر المائة الرابعة وأول الخامسة ، فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها ، وخلت البلاد من يومئذ . والبقاء لله الواحد القهار .

ثم ظعنّا منه يوم الثلاثاء ومر أصحابنا بالكحيلة ورادين . وماؤها ذو حمأة لا يكاد يشرب– ووردنا نحن الحدادية ، وصلينا به العصر ، وسقينا دوابنا ونزلنا شرقيها بأميال بعد الاصفرار– وهي بئر مستطيلة[1] وماؤها ذو حمأة .

ثم منه يوم الأربعاء ونزلنا سبخة مقطع الكبريت اصفراراً– ويسمى هذا المحل (مقطع الكبريت) لأن في أعلى السبخة معدن كبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين– ومن هناك يحمل إلى طرابلس وكذلك إلى مصر والإسكندرية . ويذهب منها مع الركب إلى مصر أحمال كثيرة ، لأن الأعراب الذين يحملون الكراء من مصر إلى طرابلس للحجاج إذا رجعوا حمل على ما فضل من إبلهم عن الكراء كبريت ، ويتقدمون أمام الركب لحمله إذا قاربوا هذا المحل . ثم يلحقون الركب في المنعم– هذا مع الأمن وسعة الوقت .

ثم منه الخميس ثامن رمضان ، وبلغنا المنعم ظهراً– وهي إحساء بساحل البحر ماؤها طيب عليها كثبان من رمل ، ينـــزل النـــاس وراءها فيمرون إلى الماء من بينها ، وقلما يخلو من عمارة الأعراب– وسقينا واستقينا وتيامنا عن البحر قليلاً– ونزلنا بعد السبخة .

ثم ظعنّا منه يوم الجمعة ونزلنا المصانع[2] طفل العشي– ثم ظعنّا منه قبل السحر ونزلنا الجديدة بعد عصر السبت عشرين من رمضان الثاني عشر من نوفمبر– وهي آبار منحوتة في حجر قرب أجدابية بإزاء قصر

---

[1] لعله يقصد: طويلة- بمعنى: عميقة.

[2] المصانع- لغة هي الأحواض والمحابس والصهاريج تتخذ الماء، ومفردها مصنع ومصنعة. وفي القرآن الكريم: وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ - الشعراء: (129). ويقال أيضاً مصانع، وللأبنية والحصون كذلك.

دائر لا بأس بمائها- وبهذه المرحلة ضل ولدنا جعفر بن موسى . وحضر معه لطف الله وبركة الأشياخ- لا عدمناها في جميع الحركات والسكنات والهواجس والخطرات- نزل من على بعيره لصلاة العصر وتقدم أمام الإبل ، ثم جلس في انتظارها ، وضرب النوم به فنام- ولما وصل الركب ولحق أصحابه ولم نره قالوا : عهدنا به حين نزل لصلاة العصر. وبعثنا في إثره الدليلين مع جماعة من ساداتنا الحجاج وأعطيناهم الفانوس ، ورفعوه على رمح وذهبوا به علّه يهتدي به إليهم . فوجدوه قاعداً . وزعم أنه انتبه من النوم اصفراراً ورجع القهقرى مغرباً ثم انتبه وتفطن لحاله ورجع للطريق ، ولما غلبه ظلام الليل جلس حتى أتاه أصحابنا المبعوثون في طلبه ، وأتوا به فجمعنا الله به- جمعهم الله بكل فضيلة ونحى عنهم كل رذيلة .

ثم ظعنّا منه بعيد السحر وبلغنا أجدابية قرب الطلوع ، ولم يلحق آخر الركب حتى حلت القائلة[1] . وسقى الناس واستقوا وملأوا أسقيتهم عازمين على السراويل . ونادى منادي الركب يحمل ماء سبعة مراحل إلى التميمي بعد أن استخبر الدليلان عن الماء . فأخبرا بأنه بمظان- ووقفنا على مسجد بها يزعمون إن الإمام سحنون درس به ثلاث سنين . وفارقنا البحر من المنعم ، فلا يجتمع طريقنا معه إلى التميمي . قال الشيخ العياشي :

" وفي هذه الأجدابية آثار وعمارات كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر ، وبنيان هائل بالحجر المنحوت . وهناك رسم مسجد قديم تهدم ، ووجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوشاً سنة ثلاثمائة " . وقال : " وهذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه ، وقيل أنها مدينة بالجبل الأخضر في الجانب البحري وقد أخبرني بعض من أثق به- هو صاحبنا سيدي عبد الله بن غلبون- أنه رآها وأن رسومها تدل على عمارة قوية ، وبها آثار سور وأبراج ورخام كثير . وقال إن بها قبراً مشهوراً يزار ، ويزعم أعراب البلد أنه قبر

---

(1) ف: النافلة.

نبي والغالب أنه قبر صحابي؛ فقد نص المؤرخون على أن رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري البخاري الصحابي قد توفي ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد، وقتل ببرقة أيضاً من الصحابة زهير بن قيس العلوي ، ندبه عبدالملك بن مروان إلى برقة فلقى الروم ، فقاتل حتى قتل . وما ذاك إلا قبر أحدهما- فإن كثيراً من العوام يطلقون اسم النبي على الصحابي ، وقد شاهدنا كثيراً منهم يعتقدون في أبي بكر وعمر وعلي أنهم أنبياء ويظنون أن اسم النبي والصحابي مترادفان فلما أخبرته بذلك فرح وقال لي : ليس إلا كما ذكرت ". قال :" ولما رجعنا من الحجاز سنة أربع وسبعين لقيته ببلدة مصراته وقال لي : إني قد ذهبت بعدك إلى المكان المذكور وتأملت القبر وعليه كتابات وإمارات ربما تدل على صحة ما ذكرت . قال لي : وذكرت كلامك لبعض الأفراد في درنة وفرح بذلك وأمر بالبناء على القبر والتنويه به ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ونية المؤمن أبلغ من عمله . فإن صح أن هذا القبر قبر الصحابي المذكور فتلك المدينة هي برقة المشهورة لا أجدابية- والأمر في ذلك قريب ؛ فإن بين المدينتين نحواً من خمسة أيام ، فكلاهما يصح أن يقال بينهما وبين كل من مصر وأفريقية شهر،وبذلك يعرفها الفقهاء . إلا أن النبي بالجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما بازائها من المياه والأماكن الخصبة والمزارع الكثيرة والغياض الملتفّة من أنواع الأشجار بخلاف أجدابية فإنها في صحراء من الأرض مقفرة- والله أعلم بغيبه . ومسمى برقة على هذا التعيين عند عرب البلد اليوم هي مسير ستة أيام من المنعم إلى سلوق[1]-وفيها أبنية كثيرة- وإطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقة المجاورة وهذا ما يقوي أن مدينة برقة هي أجدابية . وبإزاء المسجد الذي بها قبر محوط عليه بالحجارة ، يزار- يقال لصاحبه سيدي يونس وهو من عرب الفواخر- وقد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوقدوا عليه شمعاً كثيراً وبقيت منه بقية فأردنا أخذه للحاجة

---

[1] في النسختين: سلوك- والإصلاح من عند المحقق.

إليه ثم توقفت في ذلك . وبعد ذلك ظهر لي جواز أخذه . فبعثت إليه ، فوجدت الغير أخذه " . انتهى كلامه .

وذكر صاحب الشقراطسية الشيخ محمد بن علي ، برقة فقال :

" أما وصفها فقال البكري رحمه الله ؛ واسم برقة بالرومية الإغريقية بنطابلس – تفسيره:خمس مدن– وذكر أن مدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنها والمنصرفين لها . وعلى ستة أميال منها الجبل . وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها الماشية على مراعيها ، وأكثر ذبائح أهل مصر منها . ويجلب منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران، وهو يعمل بها بقرية من قراها بقرب الجبل ، وعر ما يرقى إليها فارس على حال.وهي كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه ويتصل بها عريش عريض من شجر العرعر . وببرقة قبر رويفع[1] صاحب النبي– صلى الله عليه وسلم. وأما فتحها فاعلم أن عمرو بن العاص افتتحها في زمن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه، وذلك سنة إحدى وعشرين، وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار، وعلى أن يبيعوا من أبنائهم في جزيتهم " . قال : " ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين . وزويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أول حد بلد السودان وبها جامع وحمام وأسواق ويجتمع فيها الرفاق من كل جهة منها يتفرق قصـــدهم ويتشعب طريقهم– وبها نخيل وبسيط الزرع .وبرقة(بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون المهملة بعدها قاف) . والإغريقية (بكسر الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وكسر القاف وتشديد الياء) – قيل : المراد بالرومية الإغريقية القديمة التي هي أصل لأمة الروم . وبنطابلس (بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون النون بعدها طاء مهملة وألف وباء منقوطة بواحدة

---

[1] الأصل: رفيع. وهو معروف باسم "رافع" كذلك.

مضمومة ولام مضمومة آخره سين مهملة)- كذا وقع في كتاب البكري : بنطابلس بالباء- والذي وقع في (المدونة) : انطابلس بالهمزة . قال : انطابلس ومراحل برقة،إلا أن هذا الذي في (المدونة) يؤذن أنهما مدينتان بخلاف ما قال البكري- لكن يحتمل أن تكون إحدى تلك المدن برقة ، وانطابلس اسم ليجمعها ، كما يقال : قسطنطينية ، وتوزر إحدى بلدان قسطنطينية ، والشعر الشجر الكثير، وأرض كثيرة الشعاري أي الشجر" .

قلت وفي رحلة شيخنا العياشي :

"وأرض برقة منقسمة في عرف أهلها على أقسام- أولها : من قصور حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت- ومن هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء-ومن هنالك إلى سلوق يسمى برقة الحمراء، ومنه إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر- ومنه إلى العقبة الكبرى يسمى البطنان،ومن العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى بين الأعقاب-ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغيرة .وقد ذكر العبدري تقسيماً غير هذا جار على اصطلاح أهل زمانه " .

قلت : وسلـــوق المذكـــور آبار متعددة كآبار أجدابية في صنفها ومائها - وبإزائها أيضاً رسوم وبناء إلا أنها قليلة بالنسبة إلى أجدابية- وماؤها يقل في أيام الحر ، ويتعرض الأعراب للأركاب لقصد التسوق ، فيجلبون إليها كثير السمن والزرع واللحم والإبل . ومنها يتوجه القاصد مرسى بنغازي- وهي مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر،بينها وبين سلوق مسافة يوم ، وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس . وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر الذي لا أخصب منه ولا أكثر أداماً فيما رأينا من البلاد- وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائها من البلدان ، ومن هذا الجبل غالب أدامهم ولحمهم .

الحاجية

قال شيخنا العياشي :

" وقد دخلنا طرفاً من هذا الجبل سنة تسع وخمسين في شدة الحر وتسوقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب من السمن والغنم والإبل ، لم نعهد مثل ذلك في بلد من البلدان ولا رأينا أرخص منه سعراً ولا أقل معرفة بالبيع والشراء من أهله ؛ يؤخذ منهم زهاء قنطار من السمن بالثمن التافه من بز أو عروض أو غير ذلك من الحوائج ، ولا يعرفون للدرهم قدراً- وكانوا لذلك كنعمهم غفلاً لم يدخل التجار بلدهم ولا صدرهم العمال من أموالهم إذ لا حكم لأحد من العمال عليهم- إلا أشياء قليلة يؤدونها في بعض الأحيان لصاحب أوجلة . وأما صاحب طرابلس فلم يكن- إذ ذاك- له عليهم حكم ، وأما الآن فهم تحت إيالته وفي أمر طاعته ، يؤدون الخراج ، ويدخل التجار من أهل طرابلس ومصراته بلدهم لشراء الإبل والبقر والغنم والصوف والأدام . فلذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء ومقاديرها ، وعرفوا الدينار والدرهم وأما قبل ذلك فهم كالأغنام بل هم أضل سبيلاً " .

" غريبة : عرب هذا الجبل من أشد العرب كفراً ونفاقاً - لا يعملون حدود ما أنزل الله على رسوله . ليس عندهم من الدين إلا اسمه . ولا حرفة لهم- بعد تنمية المواشي- إلا النهب والغارات . قل ما مر بهم ركب فسلم من إنشاء الحراب بينهم وبينه ، بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسوق معهم . وقد وقع ذلك معهم مراراً " . قال : " وأغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة ، فيحترس الناس منهم نهاراً خشية النهب والغارة ، وبالليل يبين الناس رقوداً مطمئنين ، لا تسرق لهم حاجة . وما ذلك- والله أعلم إلا لانقطاعهم عن العمران وتوحشهم ؛ والسرقة في الغالب أنها تعهد حيث يكثر العمران وتجتمع أجناس من الناس ، وتعمر السوق ويوجد فيها بيع وشراء . وما هؤلاء فأعداؤهم بعيد منهم لا يقدرون إلا على الغارة المرة بعد المرة ، وفيما بينهم يأمن بعضهم بعضاً . فألفوا ذلك " .

الحاجية

قال :

" ونوادر هذا الجبل- من رخاء الأدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه وبيعهم لبناتهم وغير ذلك- أشهر من أن تذكر . وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام بحرية وسبعة أيام من ناحية أخرى " .

قال :

" وأكثر أشجار الناحية التي مررنا بها العريعر[1] ، حتى أنه من شدة اشتباكه والتفافه لا ينفذ الناس فيه إلا طرقاً معلومة وشعباً مسلوكة . ومن خالفها توعر وانتشب في الغياض بحيث لا يتخلص إلا بمشقة ، سيما ذا دابة . ومع كثرة غياض هذا الجبل لا يوجد فيه الأسد . والحجاج يزعمون أن سيدي محمد صالح دعا عليه ، فأجلاه الله من هذا الجبل ، فلا يؤذي صعاليك الحجاج وذلك- إن صح- غيض من فيض في ما لأولياء الله من الكرامات " .

قال :

" ومما شاهدناه في عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر وحملهم الهوادج وإناختها عند الركوب والنزول ، مثل الإبل ، من غير مشقة عليها ولا عليهم في الإناخة ؛ لاعتياد الكل ذلك ، ولله في أرضه عجائب وفي طبع الحيوانات غرائب . وكذلك الغنم ، لا يسقونها وإنما يسير صاحبها أمامها- قلت أو كثرت- وهي تتبعه . فإذا مهل في السير مهلت وإذا أسرع أسرعت ، وإذا جرى جرت ، ويأتي أحدهم بالكبش إلى السوق وهو يتبعه مثل الكلب المعلم " .

ثم سرنا من أجدابية قرب الظهـر ، وتنكبنا طريـق الجبل- لوعرهـا

---

[1] ترد هكذا مرة، ومرة (العرعر). و(العرار) لغة: بهار البر، وهو نبت طيب واحدة (عرارة).

وطولها ، وسوء خلق أهلها وتلصصهم على الحجاج- ويممنا طريق السروال متكلين على الكبير المتعال عن يمين الجبل ، وهي مسافة سبعة أيام ، لا ماء فيها إلا ما غدرته السيول والأمطار في قيعان الأرض ولكن بفضل الله تعالى ما أعوز الناس فيها الماء إلا وأتاهم الفرج- عادة عودناها. ونزلنا شرقي شبيكة يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان ، الثاني عشر من نوفمبر[1] .

ثم منه قبل سحر يوم الاثنين ، ونزلنا كـــرداس قبل الغروب . ثم منه سحر الثلاثاء ، ونزلنا بوادي مسوس قبل الغروب . وبعثنا دوابنا واردات نحو غدير ماء شرقي المنزل . واستقى الماء من أراده .

ثم ظعنّا قبل صلاة الصبح ، ومررنا على قصر وادي مسوس . لم يزل قائم البناء على العدوة الصحراوية للوادي . ووجدنا غدران ماءٍ بعد ما حلت القائلة[2] ، وسقى الناس إبلهم واستقى الماء من أراده .

ثم سرنا وصلينا العصر بعدوان ونزلنا مزربا قبل عشاء الأربعاء . ثم منه بعد سحر الخامس والعشرين من رمضان والسابع عشر من نوفمبر وصلينا العصر بوادي سمالوس . وجاوزناه حيث لا ماء فيه . وبتنا في الشبيكة .

وظعنّا ، بعد صلاة الصبح ، ومررنا على نجع كبير من السعادي مع الأشراف ، وعرضوا علينا النزول للتســوق ، فأبي الحجاج . فاشتروا منهم الغنم ، وعرضوا الأحمال من الزرع للبيع ولم يشتر منهم أحد شيئاً ، وسرنا ، وبتنا غربي تنملق[3] .

---

[1] ت: الثاني عشر من دجنبر (ديسمبر). ف: الثالث عشر.

[2] ف: النافلة.

[3] كذا في ت. وفي ف: تنملوا.

ثم ظعنّا منه بعد السحر ، وصلينا الظهر بقصر مخيليف[1] . ولم نجد به ماء . وفيه مواجل كثيرة مبنية بالحجارة المرصوفة بناءً متقناً . ويجتمع فيه من ماء المطر ما يتبحر حتى يكاد ينفجر- إلا أن عامنا هذا قل فيه مطر تلك النواحي . وهذا القصر أعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البلاد ، وليس فيه ما حي. ولو احتسب أحد من الولاة بحفر بئر فيه لكان له في ذلك أعظم أجر، لأنه في محل بعيد من كل الجهات ، وقلما يسلم الحجاج أيام الحر من شدة تقع لهم بسبب العطش في ذلك المحل ، أو قريب منه .

ثم تجاوزنا ذلك المحل ، ولم نبت إلى المغرب أو بعده . ثم ظعنّا منه سحر الأحد ، السابع والعشرين من رمضان ، والعشرين من نوفمبر في غيض كثير. وسرنا ، وضل الدليل عن الطريق ولما قرب الصبح وظهر الضوء وتبين الطريق سرنا . وعطشت الإبل حتى كاد بعضها يموت- ومات واحد منها ،لأن منها مالم ير الماء من أجدابية- راجين الماء بوادي سمالوس أو مخيليف ، ولم يقدر من ذلك شيء . وسح علينا مطر رقيق حتى بل الثياب وأروى الأرض.وسرنا حتى مررنا على غوط، فوجدنا فيه غدراناً من الماء . وفرح الناس غاية الفرح لكثرة العطش ، مكثت البغال والحمير يومين لم تر ماء ، والناس منهم من لم تبق عندهم ولو قطرة . وشرب الناس من تلك الغدران ، وسقوا إبلهم ودوابهم ، واستقوا من الماء ما سيبيتون عليه . وعلمنا أن ذلك من فضل الله علينا؛لأنا لم نر من المطر ما يملأ هذه الغديرات ،ولم يوجد الماء في غير ذلك الموضع وقربه- لا قبل ولا بعد . وإنما أغاث الله تعالى وفده ، والله لا يضيع وفده .

ثم سرنا ، ونزلنا بعد المغرب في مزرعة واسعة لعرب تلك النواحي . ثم ظعنّا ،بعد صلاة الصبح،ونزلنا التميمي قبل الظهر التاسع والعشرين من رمضان الحادي والعشرين من نوفمبر.والغدير المذكور من نعم الله علينا وعلى الناس والإبل . دلنا عليه دليلنا عبدالحفيظ ؛ وذلك أنه لما انحدرنا

---

[1] ف: مخليف.

للغوط الذي هو به وداد[1] (؟) وخلفنا الركب وراءنا ، أنزلنا على استراحة حتى يتلاحق الركب ، وأوقد أصحابنا ناراً تقدم يرتاد[2] (؟). وتفرق الناس لأغراضهم ،من التلف في ثيابه لتقيه المطر ومن استتر بشجرة ومن استوقد ناراً، وإذا بصائح ينادي نحونا وبثوبه يشير إلينا. وتسابق الناس إليه مسرعين ووجدوه فدلنا على الغدير المذكور.ونزلنا عليه ، حتى تلاحق من الركب من له به ولا به حاجة ، ونالوا منه حاجتهم ، وسرت الأعراب سروراً كبيراً،لوهم توقعوه من إبلهم . ولما وقعوا على هذا الغدير وظفروا به أمنوا بذلك . إذ من أمثلة أعراب تلك النواحي : " شربة الوقيع خير من أكلة الربيع " .

وقد كنا أكتربنا رجلاً من الفواخر ، قبل أجدابية بيوم ، بخمسة كلاب[3] بعثناه لدرنة ليتلقوا الناس بالميرة- كما كان ذلك دأبهم مع الأركاب ، يعلمونهم بمجيئهم فيتسوقونهم بكل ما يحتاجون إليه . وشرطنا عليه أن يتلقانا بجواب كتابنا إليهم يوم نزولنا التميمي . ولم يقدر على ذلك ، ولم نر له خبراً . وبعد الظهر أتت جماعة من عرب درنة بقليل شعير ودقيق ، واشتراه الحجاج بالغلاء . وقد كنا كتبنا لأصحابنا أولاد بن غلبون ليأتوا بما نحتاجه . وبتنا ذلك اليوم ، وانتظرنا في اليوم التالي إلى الزوال . ولما لم يأت أحد ، ولا خبر ، ولا أثر ، توكلنا على الله تعالى ، فظعنّا ونزلنا أبا الغرائس[4] قبل الغروب ، وأهل هلال شوال .

ثم ظعنّا منه قرب الطلوع.وسار الركب.وجلسنا نحن ننتظر.والفجر أتانا بعض أعراب درنة بتسع دواب موقرة شعيراً . ووقف الركب حتى طلعت الشمس.واشترى الناس ذلك بخمسة كلاب للإردب.وتوزعها الحجاج ،

---

[1] كذا في ت. وفي ف: زداد.

[2] كذا في النسختين، وقد يستقيم المعنى إذا قرأناها: (لقادم يرتاد).

[3] المقصود نوع من العملة يقول عنها ابن ناصر- بعد قليل- أنها سميت كذلك لأن عليها صورة كلب.

[4] ف: الفرائس. ويمكن قراءتها: العرائس أو العرائش.

أرباب الدواب ، على قدر حاجتهم إلى العلف . ولم نسر حتى تعالى[1] النهار .ولم نقم صلاة العيد لكراهة إقامتها للمسافر على ما في القوانين[2] ، وعليه الوالد – رضي الله عنه ونفعنا به .

نكتة :

ودرنة مدينة على ساحل البحر، بها مرسى . بينها وبين التميمي مسافة يوم ونصف من غربية . وكانت خالية منذ زمان إلى أن عمرها أهل الأندلس قرب الأربعين والألف . ولم يزالوا بها إلى أن بطروا ، فانتشب القتال[3] بينهم وبين أمير طرابلس فأخرجهم منها صاغرين– بعد وقعة قتل بها مئون من أشرافهم ، وهي الآن في طاعته ، وفيها عامله المستولى عليها وعلى عرب الجبل . ومرسى هذه البلد عجيبة ينزل بها السفن الجائية من إسكندرية ومن طرابلس ومن بر الروم ، سيما مدينة كندية– فإن بينها وبين درنة مسافة يوم في البحر ، لأنها في مقابلتها . والمعاش متيسر كثير– لجمعها في البادية والحاضرة .

ثم سرنا وصلينا الظهر بعين الغزالة ، وهي عين من الماء العذب فيه بعض ملوحة ، تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها الهضب من أكثر جهاتها . وليس في برقة كلها ماء يجري إلا هذا . وتجاوزنا وبتنا شرقي أبي حسن[4] .

غريبة : وفي مسيرة الطريق ، شرقي العين المذكورة وأنت مشرق ، بيت منحوت في الحجر الصلد ، قال شيخنا العياشي في (رحلته) :

"طوله عشرون ذراعاً في مثلها . وبداخله بيت آخر نحو نصفه ، وفيه غرف صغار كأنها مخازن.وكل منقور في الحجر الصلد نقراً عجيباً مربعاً

---

(1) ت: طلع.

(2) ف: الفوائد. وواضح أنه اسم كتاب فقه معتمد.

(3) ف: الحرب.

(4) ف: أبي حصن.

كهيئة أحسن ما أنت راءٍ من البيوت ، وباب مربع من أحسن الأبواب . وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضاً . فتعجبنا من حسن صنعها واتقانها ، وتدبرنا قوله تعالى : " وتتخذون من الجبال بيوتاً " .

قال :

" وقد ذكر العبدري هذا البيت وأجاد وصفه " . أ هـ .

وبهذا الموضع أرض طيبة منقسمة بتخوم الحرث وآثار البناء . متصل بأطرافها وعن يمينها شعاب تنصب من الجبال وكأنها كانت مجاري السيل، ويقسمها أهل تلك الأرض على مزارعها .

ثم ظعنّا منه،ومررنا بعيد الزوال بموضع يقال له المدور[1] وفيه مآجل كثيرة مملوءة بماء المطر . وقضى الناس وطرهم منه ، وبقى كأنه لم تنقص منه قطرة .وسرنا ، ونزلنا مقابلة الشجرات السبع بعد المغرب ، يوم الخميس ثاني عيد الفطر .

ثم منه يوم الجمعة ثالث عيد الفطر الخامس والعشرين من نوفمبر ومررنا – بعيد أن صلينا الظهر –على وادٍ به ماء المطر . وأوردنا دوابنا، وتجاوزناه والتقينا مع نجع أولاد علي– مع الحرابة– وقد كنا بعثنا لهم للتسوق .ونزلنا بعد العصر. واشترى الناس ما أرادوا من الشعير لدوابهم – ستة كلاب للإردب– والغنم والدقيــق . وعريفهــم داود بن آدم ، وابنه – صبي مراهق– أبو بكر ، وصنوه : عبيد ، والعريف الآخر اسمه سعد الله . وفيهم مخايل المحبة والصدق ولا بأس بهم .

ثم ظعنّا– بعد صلاة الصبح– ومررنا ضحى على جب ماء فأوردنا منه

---

[1] ت: المدون. وهي عند قدامة "كتاب الخراج": المدود. وفي معجم البلدان، لياقوت الحموي:المادور.

دوابنا . وآخر بازائه مملوء ماء ، أورد بعض الكرائين فيه إبله . وتجاوزنا ، وبعد صلاة العصر لحق بنا فوارس من أولاد علي وذكروا أن عندهم تمراً سيوياً وقلنا: ائتونا به نشتر منكم . وذهبوا وبلغنا المغاير قرب غروب الشمس ووجدناه مملوءاً ماء-وتوضأنا به.ولحقوا بنا قافلتهم موقورة تمراً.وصلينا المغرب وسرنا، وساروا معنا،ونزلنا-بين العشاءين- شرقي المغاير، واشترى الحجاج ما أرادوه من التمر، نصف ريال للقفة . وهي صناديق من السعف مملوءة تمراً ،مقدار صحفة أو صحفة ونصف ، وصحفتين ويعلقونها على الإبل ، فيحمل البعير منها من اثنيى عشر إلى عشرين- على حسب صغرها وكبرها وقوة الإبل وضعفها . وتمر سيوة من أجود التمر.. لم نر من يوم خروجنا من فجيج وتافلالت[1] تمراً يشابه تمر بلادنا إلا هذا لوناً وطعماً.وهذا أنظف منه وأنقى لأن عادتهم ألا يحملونه إلا في القفاف ، كما تقدم ، وتلك صنعة عجيبة . فيبقى التمر على حاله نظيفاً ، ولا يحتاج مشتريه إلى غرائر الحمل . وليت أهل بلادنا يفعلون مثل ذلك .

وسيوة [2] بلدة كبيرة ليست تحت حكم أحد . وهي قصران ، أحدهما أكبر من الآخر . وفيها كثرة التمر والفواكه والبطيخ والدلاع . وبيع الفواكه عندهم غير معتاد ، يعد وصمة على بائعه . وإنما يعطونه مجاناً . وتمرهم يخزنونه في القفاف ، إلا ما يقتاتونه فيجعلونه في الخوابي . هكذا حدثنا من له خبرة بها . وبينها وبين مصر خمسة عشر يوماً . ولا يستطيع أحد أن يدخلها إبان الخريف من الحمى ؛ فمن دخلها سلطت عليه، وقلما يسلم من الموت ، وتأخذ أهل البلد- أيضاً إلا أن الغالب في حقهم السلامة معها . ولهم بلد ، بينهم وبينها مسيرة نصف يوم ، فيها كثرة الزيتون والفواكه والحرث ، فيها فلاحتهم[3] .وهناك - بإزائها - بلد تسمى القارة ، فيها أيضاً - كثرة النخل بينهما ثلاثة أيام إلى جهة مصر .

---

[1] ف: تافلا لت.

[2] الأصل في النسختين: سيوى.

[3] ف: أكارتهم.

الحاجية

في طريق العودة

ولما صلينا المغرب ، وأخذ الطلبة في قراءة الحزب ، واجتمع عليه جماعة وافرة - رغبة في حضور الختمة ورجاء بركاتها - فإذا بصارخ يصرخ من رعاة الإبل في السرح . ونقر الطبل ، وخرج الناس من كل ناحية أفواجاً خوفاً من عتاة الأعراب أن يغيروا على إبل الركب في السرح ، ولم يشكوا في ذلك- لما أخبروا به من أن بعض الدعار تهيأ لذلك- فأخذ الناس حذرهم وتأهبوا أهبتهم ، فإذا بالعافية والسلامة أمامهم والصارخ صرخ متوهماً لا متيقناً . نسأل الله أن يكفينا وجماعتنا شر الظالمين ، وأن يحفظنا ويكلأنا ويتولانا أبد الآبدين ، إنه ولي ذلك . كما أحسن الله فيما مضى ، كذلك يحسن فيما بقي .

ثم ارتحلنا منه ، ونزلنا علوة الخشوم[1] فانتظرنا الركب . وحان وقت الصلاة وصلينا وجاء الركب .

نكتة :

وتسمية هذا الموضع بهذه التسمية قول بداوة . وقال بعضهم : ومن أقارب الأول إنه هو الزهيري[2] ، وكذلك غير هذا من الأمكنة والمراحل إنما اعتمدنا في أسمائها عليهم ، وعهدة ذلك عليهم لأنهم أهل البلاد- سوى الأمكنة المشهورة .

---

[1] ف: الخيشومة.

[2] كذا في النسختين- وهي عبارة قلقة.

ونزلنا شرقي الخور ، وصلينا العصر ، وانتظرنا الركب . ولاحت أخريات الركب التونسي- وكان قد تقدم- وجاء الركب ، فسرنا ونزلنا رقبة الخراريب قبيل الاصفرار- وهي المجاورة للخور[1] . ثم ظعنّا منه ونزلنا للإفطار قرب غدير هديلت[2] . ولما فات الركب ركبنا فسرنا . ونزلنا معطن المقرب[3] قبل الزوال بثلاثين درجة لتسعة عشر خلت من ربيع الثاني وستة من يونيه وتلاحق الركب ونزل آخره وقد زالت الشمس بنحو أربع عشرة درجة . ووجدنا (الركب) التونسي نزل أمامنا . وسوقت الأعراب الحجاج بأربعة جمال تمراً وحمارين من تمر سيوة وبيع بكلب لقفتين[4] ....

وتاه من أصحابنا ثلاثة غلبتهم أعينهم ولم يدروا أين توجه الركب . ولما أصبحنا ولم يظهر لهم أثر جاعلنا رجلاً من الفواخر بأربعة كلاب أن يذهب إليهم فيهديهم السبيل ، فيأتي بهم . وهم من أهل مدينة مراكش دياراً ومختلفون نجاراً ، فأحدهم من الرحامنة والآخر أندلسي والآخر فاسي .

ثم ظعنّا منه بعد صلاة الصبح و(الركب التونسي) قبل ذلك ، وأخذ للعقبة الكبرى طريق بنت الأبيض المعتاد للركب ، إلا أنها لا تخلو من صعوبة ما . فملنا نحن ذات اليسار لطريق العريقيب لكونها أيسر وأسهل من طريق بنت الأبيض ، إلا أنها لا تخلو من طول ما . ووصلنا أسفلها ضحى ، ونزلنا منتظرين إتيان الركب وإراحـــة دوابنا ، فنتكل على من عليه التكلان وهو المستعان . فجاء الركب ، فعلوناها أيسر وأسهل وما أحد نزل عن دابته - إلا اختيـــاراً - ونزلنا متجاورين بمقـــدار ميلين تقريباً . وصعـــد الركب في أسهل حـــال وأيمنه وأيســـر طريـــق وأحسنه فسرنا وحان وقت الصلاة فصلیناها بالظهر غربي السويات[5] ،

---

[1] ت: للخوير.
[2] ف: قديلة.
[3] ساقطة من ت.
[4] الفقرة المحذوفة تكرار لوصف تمر سيوة السابق.
[5] ت: الشوبات.

فانمحت السيئات فضلاً من خالق البريات . ولم يأت الركب إلا والعصر حان ولم يخف فوته . فأدينا فرضه . وسرنا ونزلنا بين السويات ووشكة الطائش[1] قبيل الاصفرار فبتنا . وذكر آخرون أن الموضع يسمى روس الطرق .

ثم ظعنّا معه وقلنا بظهيرة عزيز[2] ، وصلينا به الظهر . ومررنا بين الظهرين بقبر معظم عند عرب تلك النواحي ، يسمى صاحبه الشيخ عزيز من فقراء سملوس ، تخافه العربان وتهاب- مع شدة جرأتهم وعتوهم . ووجدنا بإزاء قبره أحمالاً من صوف[3] مخزونة لا يقربها أحد ووصلنا الخشيبة قبيل وقت العصر ، موضعاً به الجبوب ، ونزلنا عند أحدها ووجدنا به بقية من ماء المطر قد تغيرت رائحته من تناول التونسيين أمامنا . وسقى من سبق إليه من أصحابنا بهائمه وسقينا بهائمنا وتم الماء ولم يبق إلا أثره ورحله وصلينا الظهر[4] هنالك وسرنا ومررنا بخيام ركب التونسيين مخيمة عند الخشيبة ، وتركناها وتجاوزناها ونزلنا طفل العشي بين قصر التراب والخوير ، ونزل آخر الركب مع الغروب ووجدنا أصحابنا التائهين قبيل معطن مقرب عن الركب التونسي ، ذكروا أنهم تقدموا أمام الركب ثم إنهم أمال عنهم للمعطن وضرب على آذانهم . فلما أفاقوا ولم يدروا أين توجه الركب وخافوا أن يقطعوا كمنوا الليل ، وساروا للعقبة منتظرين الركب على طريق بنت الأبيض- ظانين أنه يمر هنالك . ولحق بهم الركب التونسي وساروا معه حتى لحقنا بهم هنالك . وقامت سوق بين الحاج والأعراب من تمر سيوة والسمن والشياه . واشترى كل من أراد شيئاً بثمن بخس .

---

[1] ت: وشكة الطايش.

[2] ت: ظهيرة عزيزا

[3] ت: مرصوفة.

[4] ف: العصر.

الحاجية

ثم ظعنّا منه وانحدرنا ضحى في سقيفة الأغرابات من سقايف البطنان[1].. ونزلنا معطن دفنة بعيد الزوال بسبع درجات ، يوم الجمعة لثمان بقين من ربيع الثاني وتسع خلون من يونيه . وخيمت الناس ، وقامت سوق فيها من كل شيء مما في البادية من الشعير والتمر والإبل . ونال كل حاجته مما يبتغيه من ذلك وباعت الحجاج خلقان الثياب . واجتمعت بها قبائل الأعراب ، وبيع التمر بأربعة قفاف لكلب .

ثم ظعنّا منه ، ونزلنا بأول ظهير فيال (قبل زوال الشمس بخمس عشرة درجة . ثم صلينا الظهر . ولم يأت الركب إلا بعد الزوال بسبع وثلاثين درجة . وسار الركب وسرنا ، وصلينا العصر بظهر فيال)[2] وانتظرنا الركب وتقدمنا شيئاً ، ونزلنا طفيلاً بأخريات ظهور فيال[3] الغربية . ولم ينزل آخر الركب إلا مع الغروب .

ثم ظعنّا منه ، وصلينا الظهر بإزاء السبع الشجرات . وصلينا العصر على جب فيه بعض ماء . ثم تقدمنا شيئاً ونزلنا شرقي المدور بعيد العصر . وهو مكان فيه مآجل للماء قلما تخلو منه إلا في السنة المجدبة ، وفيه مزارع ربما مر الحاج بها وفيها زرع كأجود ما يكون . وبعثنا بغالنا مع الدليل عبدالحفيظ ليوردها بالمدور . ورجعت الشمس مائلة للغروب وتقدم أصحابه معه بعد صلاة الصبح لسقي بعض القرب لنا ، وسقوا ثمانيا وتعرضوا بها للركب .

ثم ظعنّا منه ، وقلنا في السد ، ولم نزل به حتى زالت الشمس . وورد به علينا أربعة من أهل درنة على خيولهم ، مستغيثين بالوعر والعلو[4] مع قبائله على من أراد أن يغلبهم على بلدهم من الأتراك ومن أعانهم على ذلك من تلك النواحي- أمنهم الله وسكن روعهم وأغناهم بالسهل عن الوعر. وصلينا الظهر وأخبرنا أن أهل درنة لاقوا الحاج بشيء قليل من الزاد لا يكفيهم ولا جلهم .

---

[1] ت: البطحان.

[2] ساقطة من ت.

[3] كذا في النسختين: ظهير- وظهر- وظهور فيال.

[4] ف: بالعود العلوي.

الحاجية

وارتحلنا وبتنا غربي أبي حسنة[1] . وأراد بعض أصحابنا أن يتقدموا إلى التميمي ليأخذ من المأتي به من الميرة نصيباً خوفاً من استبداد غيرهم بذلك دونهم ، ثم بدا لهم الترك لذلك اتكالا على قسمة أزلية . وما كان لك لم يكن لغيرك وما لغيرك لم يكن لك ، وما قدر لماضِغَيْك أن يمضغاه مضغاه - لا محالة . ففيم الطيش والجزع والفزع والهلع ، والسرعة والعجل . ولله در القائل :

لا تعجلن فليس الرزق في العجل ... الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبــرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنــه خلــق الإنســان من عجل

فاستحسنا ذلك منهم . ولولا ما جبل عليه الإنسان من السخط لرددتهم أولا بلا شطط والله تعالى يوسع الجميع فضلاً وطولا ، وأتي الله من عند أولئك النفر الأربعة بقثاء كقثاء بلادنا المسمى بالعنان الملتوي طولا[2](؟).

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا- بعد أن تجاوزنا السبخة التي بازاء عين الغزالة ، وهي عين ماء فيه ملوحة تسح من سفح جبل وتصب في بحيرة كبيرة تحتها من البحر المالح يحف بها القصب والعريش وأنواع النبت المائي ويوجد حولها صيد كثير عند خلو البلاد من كثرة المارة . وجاء الركب ، وسرنا وقلنا بفدفد واسع ، وبقي للـــزوال نحو خمس عشرة درجة ، وبقينا هنالك حتى صلينا الظهر . وسرنا ونزلنا التميمي قبيل العصر يوم الثلاثاء لأربع بقين من ربيع الثاني وثلاثة عشر خلت من يونيه . وتعرض لنا هنالك جائيا [3] لملاقاتنا الأخ الأود الحاج عبد الواحد بن غلبــون وطلبة درنة ، كسيدي عبدالكريم الحاج ساسي وولده وجماعة من أعيانهــم . وســـاروا معنا إلى محل نزول الركب ومخيمه غرب السانية التي هنـــالك ، ونزلنا في سفـــح أفيح مستحجـــر لا تكـــاد الأخبية

---

(1) كذا- ولعلها (أبي حسن) أو (ابي حصن) كما مر.

(2) كذا في النسختين.

(3) ت: ولغرض لنا هنالك جاء لملاقاتنا.

تقف فيه إلا بالأحجار متقفة بها أحبالها من صلابة الأرض . وأما الأوتاد فقلما تدخل . وجاءوا بملاقاة قليلة وتوزعها الحاج كل وما قسم له . ولاقانا الحاج سيدي الحاج إبراهيم بشيء من قثاء وخبز ومشمش.وكان معنا حاجاً ولاقاه إخوته بذلك لكونه من درنة وإمامهم . وتوادع معنا والتحق بأهله.وأتانا الأخ الحاجب عبدالواحد المذكور ببعض ما كتبنا له من الشعير والدقيق بثمانية عشر كلباً ، شراءً وكراءً ، لافتتان أهل البلد مع أعرابهم وإفسادهم زرعهم واستيلاء الرعب عليهم . وأتوا خفيةً ليلاً ليجاوزوا محل الخوف في ظلام الليل . وما جاء الناس في أمرهم- لما لم يكفهم ما أتى أولاً- هل يذهبون إلى درنة أم لا. ثم رجعوا عن ذلك وعولوا على المسير على طريق الجبل على أن يلاقوا من أعراب الناحية ما يحتاجونه من المسيرة .

وأقمنا به يوماً . وأتي الله من عندهم بقثاء وشيء من الشهد والسمن والمشمش ، (وأتي من عند سيدي عبدالواحد بعسل وسمن وقثاء ومشمش . ومن عند سيدي عبدالكريم بعكة من عسل ، وأخذها أخونا)[1] سيدي أحمد محمد الهشتوكي فبلغت محلها.فالله يتقبل من الجميع . واشترى الناس منهم السمن والعسل ،وأما الشعير والدقيق فأقل من القليل،على خلاف العادة من أهل درنة مع الحاج،لما حل بهم من الفتنة.وذلك أن عامل درنة عتا وتجبر وتعدى وتشيطن[2]،وأخذ من أموالهم وتحكم فيهم من غير مبالاة بأحد . ثم توغل في الظلم للأعراب وبالغ الغاية ، فاسترضوه ولم يرض.وأتت طائفة من الأتراك مع عثمان[3]المعزول قبل هذه المدة من طرابلس مع نحو مائتين من الأتراك أراد أن يغصب أميره ويعزله عن عمالته بدرنة ، وأتى معه بكتاب تقوله وافتعله عن السلطان.ودعته لذلك تلك الأعراب بغضاً في عامل درنة ونكاية،لما كان يفعل بهم،وأجمعوا على ذلك.وخرج عامل درنة

---

(1) ساقطة من ت.

(2) ف: وتسيطر.

(3) ف: عصمان.

إليهم وغزاهم ، ونصرهم الله عليه . وقتلوا منه نحو ستين رجلاً ، وكذلك من الأعراب نحواً من ذلك . ومات من أعيان الأعراب وفرسانها نحو من ثمانية . فقامت الأعراب بينهم على ساق ، وإلى الله المساق .

وبعد ارتفاع النهار جاءت جماعة منهم بطائفة من الشعير للركب بقصد البيع ، زيادة على ما تقدم ، تحملها بعيرات ، وبعض أحمال ، فسد الله – بذلك– بعض الخلة وأبرد به الغلة . واشترى من ذلك (من أراده)[1] .

تنبيه :

ودرنة هذه قاعدة الجبل الأخضر ، مدينة على شاطئ البحر بينها وبين كندية[2] مسيرة يوم في البحر ودرنة مدينة كبيرة فيها كثرة المياه والجنات والفواكه والأعناب ، وفيها السواني ذوات أنواع من الثمار . وبها أسواق وفنادق . وأمر المعاش فيها سهل ، والعمارة فيها كثيرة . أخبرني من أثق به أن بها من أهل مصراتة خاصة ثمانمائة رامٍ ببنادقهم ، سوى ما فيها من غيرهم .

ولم تكن بها العمارة من قبل ،وإنما أحدثت في حدود الأربعين والألف . بناها أهل الأندلس لما خرجوا من جزيرتهم ونزلوا[3] في هذا المكان ، فأعجبهم وأمنهم.وفجروا فيها أنهاراً وغرسوا أشجاراً وحفروا سواقي وبنوا وسكنوا وأسكنوا ، واستقلوا بأنفسهم ولم يكونوا تحت أحد. ثم أنهم طغوا واشتغلوا بالفساد ومدوا أيديهم في عمالة أهل طرابلس ، في زمان عثمان باشا .وأغاظ ذلك أهل طرابلس فوجهوا لهم عسكراً وتقاتلوا معهم ، وأخذوا أموالهم،وقتلوا من قتلوا ونفوا من نفوا،ولم يبق منهم إلا أقل القليل. واستولى أهل طرابلس على البلد ، فهي تحت أيديهم إلى الآن .

---

[1] ساقطة من ت.
[2] ف: خانية.
[3] الأصل: خرجوا.

الحاجية

رجوع وانعطاف :

لما تأهب الحاج من أهل درنة بما قدر لهم من الميرة أخذوا يملأون قربهم ، وأخذوا من ماء الوادي العذب الفرات ما يقوم بهم ويكفيهم لمعطن جردس[1]–مفازة مسافتها أربعة أيام .وكثيرٌ يحفرون في بطن الوادي فينبغ أطيب وأحلى ماء كماء السماء ما رأينا مثله عذوبة غير نيل مصر . وأما الساقية التي بإزاء الركب ففي مائها ملوحة تصلح للإبل والدواب ، واستعملها الناس لذلك . وبشاطئ البحر عين كعين الغزالة تردها الإبل . وبالغ الناس في ملء قربهم ما غادروا قربة يملكون السبيل إليها إلا وملأوها بماء،ليستقبلوا هذه المفازة الصعبة.زعموا أن ليس في مفاوز برقة، من مصر إلى طرابلس ، أصعب منها وأشد مهلكة ومعطشة . تيبس من حرارة عطشها من الرجال والأجمال الأكباد ، وتكل فيها وتنقص من الإبل الأكتاد،إلى أن أعان المعين بمعونته فأطل عنان السماء بطوله ومنته.

ثم ظعنّا منه ، يوم الخميس ، وكساشأن المفازة المرؤوس والرئيس ، لاثنين بقيا من ربيع الثاني وخمسة عشر خلت من يونيه ، متوكلين على رب البريات ، مستعينين بمن رفع عمد السماوات ، وصلينا العصر بالجرارة . ونزلنا بعد العصر بشرقي القريات . ثم أصبحنا وارتحلنا منه . والقلوب من رعب العطش كادت تتفطر ، وفي الأسباب المذهبة له تتفكر . فذهب أصحابنا لناحية غدير أبي هندي يسقون مع جماعة من الحجاج قربهم . وتعرض لهم جب به ماء بطريقهم ، وملأوا منه ما قدر لهم فرجعوا . ولم نصل للغدير ، وصلينا الظهر بالمخيلف وتسابق الناسب لجلبه [2] إذ طرق سمعهم من بعض (القوم) أن بها ماء وأنه قريب العهد بها . ولم يجدوا شيئاً ، ووجدوا فضل الله عنده وفيه الكفاية ، ونزلنا قبيل الاصفرار ، بينه وبين وادي الخشبة .

---

(1) ت: جردين. ف: جردبين.

(2) ت: لحمله.

الحاجية

ثم ظعنّا . وأضحينا- بعد أن جاوزنا وادي الخشبة . وتسابق الناس يحملون قربهم على أكتافهم مع الدليل جاد الله الجابوسي[1] يأملون الماء بغدير التراب ؛ إذ أخبروا أنه به ، والله المسئول أن يكمل أمنيتهم...آمين ، آمين ، آمين !

ثم أخذ الطلق مملوكتنا آمنة بنت سعيد زوج سالم بن بركة ، فأتت بولد ذكر بوادي الخشبة ، ضحوة يوم السبت سلخ ربيع الثاني لثلاثة عشر بقيت من يونيه وسميناه على اسم ولي الله حقاً والقائم بخدمته صدقاً، أبي الفيض ذي النون - رضي الله عنه- تفاؤلاً ليزيح الله ما بالركب بفيضه الشائع وطوله الواسع .

وسرنا . وصلينا العصر بوادي الحمامة . فإذا بأصحابنا المتوجهين لغدير التراب بعثوا إلى الإبل لتذهب إليهم فيحملون عليها القرب التي ذهبوا بها ، وبُعثت- والحمد الله أولاً وآخراً . وكما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى. وتركنا طريق السروال وتنكبناها ، وجانب الهجران وليناها ، ولطريق جردس[2] تدرعنا ، وغصص المشاق تجرعنا ، كما عولنا على ذلك . لكون الوقت دعا إليه ، مع اهتمام الناس بما يكابدونه وجرت به العادة بجردس من المزاحمة والمضايقة- لقلة مائه . (فهو) إنما يفيض بماء يرشح رشحاً لا يخلو الناس معه من مشاجرة ومخاصمة ومدافعة ومشاتمة . فلم نجد إنساناً مع ذلك يملك نفسه ، أو أنيساً يتجلى[3] أنسه ، إلا الإثبـــات من الناس والأفــراد من الأكياس- وقليل ما هم . نسال الله العظيم أن يكفينا مؤونة ذلك ، وأن يغنينا عن تلك المسالك ، وأن يوردنا أغزر الموارد ، وحب الزوايا ومجمع المحامد ، بمنه وطوله ويمنه وفضله ، إنه ولي ذلك ، والمالك أزمّة ما هنالك .

---

(1) ف: الحابوصي.

(2) ت: الجردين.

(3) ت: يتلى. ف: يتحلى.

الحاجية

وبتنا شرقي غوط الدروة[1] قبيل الاصفرار . واستهل جمادي الأول- نسأله تعالى أن يهله علينا باليمن والأمان والعافية والمعافاة وأن يرزقنا خيره وأن يقينا ضيره . ولما اطمأن بالناس المنزل والدار ، واستقر بهم القرار ، أجمعوا أمرهم على أن يبعثوا من الأدلة والأعوان من يستخبر لهم علماً بتلك النواحي لمسلك الري من الغدران ، لعلّ الله أن يوفقهم إلى ما يغنيهم عن جردس ومزاحمة الركب التونسي به على الماء- فإن الله يفعل ما يشاء- وانتدب لذلك جماعة ، شكر لله سعيهم وأنجح رأيهم وتولى أمرهم وفك أسرهم ، قبيل أذان الصبح . فذهبوا- كمّل الله لهم المرغوب ويسّر لهم المطلوب .

ثم ظعنّا به بعد صلاة الصبح ، وفاز كل مصلّ بها بجائزة الأجر والربح ، فباء الشيطان- لذلك- بالخيبة والقبح . وأضحينا بأوائل غوط الدروة[2] ، وافترش كلّ فروة . ولما سرنا[3] وتجاوز الركب مشرفين[4] نحو الذاهبين لطلب الماء بأعين ناظرة وأذن سامعـــة واعية وقلوب حاضـــرة وسرنا ، إذا بالنـــاس يهرعون ذات اليسار ، وإذا بفارسين يعدو بهما فرساهما تدفعان بهما شأوا وشأواً بالتسيار[5] ، أخبرانا أن بالشبيكة غدراناً تكفي وتغني وتسع الركب ريّاً وتغني . فملنا تجاهها ، وولينا طريق جردس[6] ظهور الهجران وأولينا النعمة صريح الشكران . وجئناها وقد قام قائم الظهيرة ، ونزلنا عند أكبرها وأغزرها وأفسحها . ورجع دليلنا عبد الحفيظ ليسهل للركب موضع نزوله ، ومناخه ومحط حموله ، فنزل الركب وقد زالت الشمس ، وزال عن الناس بذلك التعس ، وسقوا واستقوا ، ورووا وارتووا ، من فراتها العَذب وقراحها الصبّ .

---

(1) ت: الدورة.

(2) ف: الذروة.

(3) ت: اشتركنا.

(4) ف: مستشرفين.

(5) هكذا في ف، وفي ت: (ترافعان بهما شأوي وشأوي وشأوي بالتيسير). والشأو- لغة- هو السبق، وتشاءى ما بينهما؛ تباعد.

(6) ت: جردين.

ووجدنا بها غدراناً،أما إثنان منها فتكفي الأركاب في الذهاب والإياب . وأخبروني عن ثالث وقف عليه بعض أصحابنا وزعم أنه دخله فاستوى ماؤه ورأسه، وبهر حزره وحدسه. وبات الناس في نعمة تضرعوا إلى الله أن يوزعنا شكرها ويزيح عنا كفرها.ثم نادى منادي الركب أن يستقوا من الماء ما يكفيهم خمساً ويقوم بحاجتهم مرؤوساً ورأساً ، قصداً للتوجه إلى أجدابية من هنالك،ولا يسلكون لها مسالك سلوق الهائلة الممر والسلوك، فأهول بها من مسالك.فزاد العناء والتعب وبدا الشقاء والنصب ، والحمد لله على ذلك .

لطيفة :

لما خفنا من العطش وقلة الماء ، أمرنا أصحابنا بقسمة ما بأيديهم من الماء بإناء معلوم لديها- لكلّ قسمة . فاستبشروا بنعمة من الله وفضل ، ومدد طول ، لما جرب لديهم في هذه السرفة[1] ؛ أنهم مهما قلّ ماؤهم وقسموا كذلك جاءهم الفرج من عند الله ، فيغيثهم بالماء الواسع الغزير النمير ، فكان الأمر كذلك- عادةٌ عودناها الله تعالى فضلاً ومناً من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته . نسأله تعالى أن يوفقنا لصدق العبودية والقيام بحق الربوبية في الحالين . فأصبحوا على غدير التراب (فأجرى منه بعض الآيات)[2] وملأوا منها قرباً . فكمل الله بنعمته بغدران الشبيكة ، فأسبغ نعمته على الكافة ، والله ذو الفضل العظيم .

رجوع وانعطاف إلى نسق الكلام وائتلاف :

لمّا قرت من الناس العين،لما وجدوه من الماء المعين ، وأيقنوا بالسلامة مما توهموه من الحين ، وأكثروا من الماء إكثار رهبة ورغبة ، وتناولوه

---

[1] كذا في النسختين- وهو إما يعني العادة والتجربة- أو هي تصحيف لـ(السفرة) بمعنى الرحلة.

[2] كذا في ف. والجملة بياض في ت.

تناول مجدب وذي نكبة ، وسمعوا النداء بماء الخمس ، ضربوا الأخماس في السدس .فباتوا يتذاكرون[1] وفي أمرهم يترددون- أي طريق يسلكون . فائتلفوا ألا يأتلفوا ، وتحاوروا فما ائتلفوا . فمن قلّ زاده وعلف دوابه أراد الانخراط في سلك سلوق ،على أن الظفر بالمراد من ذلك بعيد، لما حلّ بالبلد من فتن الأعراب والملوك . وذو الاستكفاء أراد ترك تلك السبيل ، والذهاب على طريق السروال[2]،واستهون ما استصعب غيره فيه من الأهوال . فتركت ذلك لله وفوضت الأمر إليه تعالى،وجعلته بينهم شورى ، وهو يخيّر للجميع ويختار،ما هو النافع غير الضار،وأرخينا الشأن لمالكه .

ثم ظعنّا من الشبيكة ، كأنّ كلا من الحجاج متصل بسبيكة ، فرحاً وسروراً بغبٍّ المغيب وأضحينا بوادي سمالوس ، ووجدنا بها وادياً به ماء سماوي ، وهو واد كبير يهبط من الجبل الأخضر ، تصب فيه أودية كثيرة من أودية الجبل ، قلمّا يخلــو من ماء إلا في الأعــوام المجدبة . وتعرضت أعراب للركب بشيء من الشعير ، واشتــراه من اتّصــل به . ثم سرنا وصلّينا العصر بأعلى وادي تازربو[3] ، ونزلنا بينه وبين وادي عدوان اصفراراً ، وبتنا به . وجمعنا [4] أعيان الركب بين العشاءين ، لنستخبر ما عندهم وما عليه جلّهم وما هو الأصلح لهم . واتّفق رأيهم- بعد مراجعة في الكلام ومراسلة ومناقشة فيه ومواصلة- على أن يتوجّهوا متنكّبين طريق سلوق معتمدين على ملك الملوك ، وأن يرضخوا القليل من الزاد والعلف مما عندهم ، وقليل ما هو ، يستعينون به على أمرهم حتى يصلوا[5] محــلاً يتيسّــر لهم فيه الغــرض من ذلك ، من ســرت ونواحيها . نسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم أن لا يكلنا لأنفسنا ، وأن

---

[1] ت: يدكون.

[2] ف: السراويل.

[3] ف: مزرب.

[4] ت: وحفنا.

[5] ت: يطأوا.

ينعم علينا بنعمه الوافرة ، وأن يسبغها علينا ظاهرة وباطنة . إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

ثم ظعنّا منه يوم الثلاثاء ، ثالث جمادي الأولى ، عشرين من يونيه ، ثم أضحينا- بعد مجاورة عدوان للاستراحة- في بسيط أفيح ذي عواقب مستحجرة ، وصلينا الظهر بعد الإبراد به لتوجه حرارة النهار في تلك المسافة بوادي مسوس . وانحدر معه جماعة من الحجاج ببغالهم ، علهم أن يصادفوا غدراناً به ، ولم يقدّر من ذلك شيء . ورجعوا إلينا بعد أن نزلنا للمبيت بجرير الحرام بين العشاءين . وتخلف عنهم الحاج[1] بلقاسم السمار بحماره ، وكان تبعهم بحماره لما انحدروا من الوادي يريد منه ما أرادوا . ونزل هذا المنزل آخر الركب مع الغروب ، وكنّا نزلناه قبيل الطفل . ولما أصبحنا ولم يظهر للحمّار أثر أجّرنا بأربعة كلاب دليلين من أعراب الضعفاء للإتيان به . فالله تعالى يجبره ولا يهلكه ... آمين !

ثم ظعنّا منه ، وانحدرنا مع أودية الكرداس[2] مع الأشراف . فأضحينا بمنتهاها ، ونزلنا للاستراحة ، ولمّا تجاوز الركب سرنا ، وحين وصلنا المصانع وقام قائم الظهيرة قلنا ، ولحق بنا الدليلان الذاهبان للحمّار وأخبرنا أنهما وجداه وألحقاه بالركب . والمنّة لله أولاً وأخراً . ولم نزل به حتى زالت الشمس . وصلّينا الظهر ، فسرنا وانحدرنا مع عقبة السروال لبرقة قبل العصر . وانتهت العجرمية - وهي أرض لا تنبت إلاّ العجرم وليس للإبل بها شرب ولا مطعم- من مسوس [3]لهنا . ونزلنا بأول برقة ، شرقي العلم ، اصفراراً . وتقدم أصحابنا (قبل الصبح) [4] مع الدليل- لسانية يستقون منها الماء .

---

[1] ف: الحمار.
[2] ف: الكرسي.
[3] ف: سملوس.
[4] ساقطة من ت.

الحاجية

ثم ظعنّا بعد صلاة الصبح كالعادة . وأضحينا بمنتهى العلم ، غربيّه . وقمنا[1]- بعد أن تناولنا مع الإخوان في لله (من الطعام)[2] ما قدرّ وتيسّر . ولما جاء الركب وتجاوزنا سرنا . وكنّا تواعدنا مع أصحابنا الواردين أن يلاقونا بالقرب من هنالك ونوافيهم بالجمال ليحملوها عليها ، ولم يظهر لهم أثر . وذهب في ارتقابهم والبحث عنهم رفيقنا ودليلنا عبد الحفيظ بن أبي غنيمة الضعيفي ، وتقدمنا يدلنا على الطريق الحاج الحسن النجمي . وقلنا بازاء الوشكة (إلى أن صلينا الظهر وأتانا عبدالحفيظ)[3] ولم يقف لإخواننا أولئك على أثر ، نسأل الله تعالى أن يجمعنا بهم في يمن وعافيتة . وسرنا وبنا من أجلهم[4] ، ما الله به عالم ، لذهابهم في تيهاء برقة ، (وهي) ذات ظراب[5] وربوات تقصر دونها الخطوات وتحار فيها القطاة . ترفع السالكين وتخفضهم وتتوارى بهم وتلفظهم . كأمواج متلاطمة أو زوابع متصادمة ، مغبرة أرجاؤها كأنّ لون أرضها سماؤها .

ولما صلّينا العصر وسرنا ، واصفرت الشمس ، لاحت لنا أشخاص على ربوة مرتفعة وأكمّة متسعة . وتلاحق بها آخرون على دَوابهم فمنّ الله بالفرج و(رائحتهم) استنشقنا وأنهم هم تيقـنا . فحلّ بنا من السرور ما أثلجت به الصدور .فقلنا:(الحمد الله الذي بيده أزمّة الأمور)، فأسرعنا نحوهم ،ووجدناهم يسقون من سواني ماء وجدوا عليها حيّاً من أعراب نزلوا عليها وجاء بعض منهم بشياه ، والآخرون اكتفوا بما حازوه من مياه. وذكروا أنهم واعدوهم أن يسوقوا[6] الركب بالغنم والسمن بأجدابية .

---

[1] ت: وقلنا.

[2] ساقطة من ت.

[3] ساقطة من ت.

[4] في ت: وتبنا من أجلهم.

[5] بياض في ت: والظرب- لغة- ما نتأ من الحجارة أو الجبل المنبسط أو الصغير.

[6] يسبقوا.

الحاجية

ونزلنا ، طفل العشي ، بسانية الشبيكة ، ثم ظعنّا منها ونزلنا أجدابية ـحى يوم الجمعة سادس جمادي الأول ، الثالث والعشرين من يونيه بات الركب بها متنعّمين بماء عذب في آبار منقورة في صفاح أحجار شتدة متصلة . وسقوا واستقوا ، ورووا ، وارتووا . وتسوّق أعراب ركب بشويهات وشيء من الشعير .

ثم ظعنّا منه اصفرار يوم السبت ، سابع جمادي الأولى ورابع عشرون من يونيه وهو يوم العنصرة . وعققنا عن غلامنا المولود بوادي لخشبة بشاة مشتراة من تلك الشويهات بكلب وأربعة قراميل . فالله يصلحه ويجعله ممن فاز منه بالأجرين بمنّه وكرمه .. آمين ، آمين . وكنّيته أبا الفيض ، وسميناه ذا النون- تبركاً بالسيد المشهور المصري ، واعتباراً بما أغاث الله به عباده مع شدةّ خوفهم من أليم العطش من فيضه الوهبي يوم ولادته ، فوجدوا من الماء بغدير التراب ما أمّنَ الله به روعتهم وبرّد لوعتهم ، ثم بوادي الشبيكة مما اطمأنّت به أنفسهم واستقرّ به أنسهم - فأصبحوا في أثواب نعمة فيضه يرفلون وفي وافر آلائه يترددون ، وبما وجده السقاة من السوينيات - قبل نزولنا بأجدابية .

وأضحينا بالجديد ،على نحو فرسخ من أجدابية ؛ آبار في مفازة واسعة، تشبه آبار أجدابية ، (وهي) ثلاثة وعليها آثار قصر تهدم . ثم قلنا بمحل يتراءى لنا به قبر طويل تزعم أعراب تلك النواحي أنه قبر(عامر الخفاجي) ، ولم نزل به حتى زالت الشمس بخمسٍ . وصلينا الظهر ، ونزلنا لصلاة العصر بكمان الحباري[1]. وسرنا ، وبتنا بالسيوق[2] وتم نزول الركب مع الطفل .

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا بالمصانع ، فنزلنا لإراحة دوابنا وإزاحة التعب عن أبداننا.وقلنا بقصور العطلات إلى أن صلّينا الظهر، فسرنا ونزلنا فوق (الحطبة) [3] بعد العصر- معطن به ماء عذب على ساحل البحر وبهذه

---

[1] كذا في ت. وفي ف: بمكان الجاري.

[2] كذا في النسختين.

[3] ساقطة من ت.

الحاجية

المرحلة مات الحاج يعيش من أحمد الدرعي[1] المصراتي- رحمة الله عليه- ودفن هنالك بموضع مبيت الناس ، بعد صلاة المغرب . وتاه رجل من أهل مراكش ،رفيق محبّنا[2] الصادق سيدي أبو العباس بن محمد الرفاعي . نام ولم يصل إلى الركب . ولم ننزل الركب وأوقدتُ له نيراناً ورفعت المصابيح علّه أن يتوصل بها ويهتدي إلى الركب . ولما لم يظهر جاعلّنا صبحاً الحاج رحومة الضعيفي بأربعة كلاب على أن يرجع إليه في أمره فيبحث عنه .

ثم ظعنّا منه ، ونزلنا معطن المنعل ، باللام والميم ، حين الظهيرة يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى السادس والعشرون من يونيه . ووصل آخر الركب بعيد الزوال . وبات الناس ليتهيّأوا لمفازة أمامهم- خمس مراحل . وسقى الناس دوابهم وإبلهم وملأوا قربهم . وماؤه متنوع فيه عذب طيّب وخلافه . وتوقيت به الحاجة عائشة القنطريّة ، امرأة خيّرة لا بأس بها . وكانت حجّت معنا ، مع زوجها ، سنة تسع . ودفنّاها بعد صلاة المغرب . والله يتقبّلها بقبول حسن ويضاعف حسناتها ويتجاوز عن سيّئاتها ، بكرمه وفضله- آمين- ومنته وطوله .

ذكر أجرة (الدليل) [3] وما انضم إليه مما للحاج به استعانة على أموره :

ثم اجتمع الحجاج لغرض ما التزموه من الأجرة . ونهاية ذلك خمس وأربعون كلباً ، وهو سكّة معلومة بتلك النواحي ، وسمّيت بذلك- والله أعلم- لأنّ عليها طابعاً على صورة كلب . خمسة منها للبرّاح والباقي للدليلين[4] ... قلت :

---

[1] ت: الدراء- و(النصراتي) في النسختين بالنون.

[2] كذا في النسختين، ولعلها (محبتنا) أو (حجنا).

[3] بيان في ت.

[4] الفقرة المحذوفة بحث فقهي في أجره الدليل خارج عن سياق الرحلة.

الحاجية

ثم انفصل رأي الأعيان من العلماء وأكابر الإخوان على قسمة بعض ذلك على الأموال المعدة للتنمية والبعض الآخر على الرؤوس ، استحساناً ومراعاةً للجانبين وكان ذلك خطر لي قبل اجتماعهم ، ثم إن الله دلّهم على ذلك وألهمهم إيّاه . والله أعلم بما هو الحق والصواب ، وإليه المرجع والمآب[1] ..

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا عند سبخة سرغين . و(كان) أتي بالأمس في المعطن الضعيفي المبعوث في إثر الذاهب ، ولم يقف له على خير . والله يجمع به الشمل .. آمين . ثم سرنا وملنا ذات اليمين لمعطن أبي شعيفة[2] ؛ ماء بساحل البحر فيه ملوحة . وقلنا به حتى صلّينا الظهر وسقينا دوابنا ومشينتا ، ولحقنا الركب ، ونزلنا بأول سبخة مقطع الكبريت حتى صلينا العصر ونزلنا بمنتهاها ، غربيَّها ، على حد الجبل الخاش[3] . وزعم عرب تلك النواحي أنه مبدأ سرت من ناحية الشرق ومنتهى برقة من ناحية المغرب .

ثم ظعنّا منه،(وأضحينا بأم الغرانيق)[4]؛ رملة بيضاء على يمين الذاهب غرباً ، وهي ممتدة وصلينا العصر بأواخرها ، ونزلنا بوادي القطف اصفراراً . بتنا به ونزل آخر الركب مع الطفل . وذهب بعض الحاج للحداديّة؛سانية ببطن الوادي فيها ماء شيب بمرارة . وسقوا بغالهم ورجعوا إلى الركب بعد العشاء ، ثم منه ، وتقدم من الناس من له أرب بالماء بقربهم ليملأوها ويتعرضوا . وأضحينا بواديها ولم نجد أصحابنا بها ، وسألنا عنهم- لكونهم تقدموا مع من تقدم- فأخبرنا أن الدليل ذهب بهم إلى الكحيلة . وقلنا على نشر من الأرض قريب من الساحل ذي نسيم بارد . وصلينا الظهر وارتحلنا . ونزلنا لصلاة العصر بوادي الكحيلة حيث يتراءى لنا معطن أبي كليلة به ماء مالح

---

[1] الفقرة المحذوفة بحث خارج عن السياق في أنواع النقود والريالات والدرهم.

[2] كذا في النسختين. وهو غير (أبي شعيفة) الذي على شاطئ مصراته.

[3] كذا في النسختين، ولعلها (جبل الحناش).

[4] ساقطة من ف.

تشربه الإبل . والتقينا هنالك بأعراب ساقوا سمناً وشويهاتٍ ينادون عليها بالبيع .

ثم ارتحلنا ونزلنا الحجاج على قرب من اليهودية. جنوبها ، طفل العشي . ولم ينزل آخر الركب إلا بعد الغروب . وتسابق الناس لمالح مائها الزعاق على عطشها لا تكاد (الناس) تسيغه ، وأما الإبل فتناولت منه تناولاً ما مع فرط العطش وبعدها عن الري . فالله يعقبه عقبي حسنة ، فضلاً منه ومنة . واليهوديّة قرى كثيرة متقاربة فيها آثار بناء خالٍ متراكم يدل على أنها كانت عمارات كبيرة واسعة . واشتهرت على ألسنة الحجاج بأنها كانت مدينة بنتها[1] يهودية في عسكرها كذا وكذا من الخيل . وفي (الرسالة القشيريّة) عن بعض الفقهاء أنه قال : " دخلت مدينة بأرض المغرب تسمّى اليهوديّة . والله أعلم بحقيقة ذلك " . أ هـ .

ثم ظعنّا منه يوم الجمعة ، ثالث عشر جمادي الأولى وآخر يونيه . وأضحينا بازاء قور[2]عليها مقابر غربي اليهوديّة ، وقلنا بالرحيبيّة على أكمة تنظر إلى البحر . ثم ملنا نحو الشقة ، فإذا بها بئر ماؤها بارد شيب بمرارة ما . وصلينا هنالك العصر. وجاءنا رجل من الحمالين عند سيدي خليفة ، كبير أولاد سيدي ناصر ، ومعه نجع كبير منحاشون إليه خوفاً من عبدالله بن عبد السلام أن يغير على سعيهم.وأخذوا له أهبة من عدد وعُدد.

وأولاد سيدي ناصر فقراء مرابطون من أهل سرت . يطعمون الطعام لمن ورد عليهم ، ومعهم طرف من الديانة . إلا أنهم أضرّ بهم جور الأعراب ، لأنهم بين عرب سرت وعرب برقة . فقلّما يسلم لهم وقت من غارة . إمّا من هؤلاء أو من هؤلاء وسيدي خليفة الآن هو رئيسهم . وهو رجل مسنّ ممن طعن في السن ، له أولاد كثيرون ، وبه الآن وجع بعينيه- شفاه الله لا يعاود سقماً

---

(1) ف: ملكتها.
(2) ف: نوير.

ومتعه الله بهما وجعلهما الوارث منه[1]...آمين،آمين ! وطلب الركب المقام ليتساقوا مع الأعراب،ورأيت حاجة الحجاج لذلك فوافقت عليه واستحسنته، نظراً للفريقين أن يصيب كل حاجته من صاحبه مع التراضي ، وبعثت بدوياً مع الجمالين أن يتعرض لأول الركب للنزول . فنزلنا على حد سبخة العويجة بين المعرجة[2] والشقة ، والمنزل إلى الشقة أقرب . وذلك بعد عصر الجمعة ثالث عشر جمادي الأولى ، وآخر يونيه . وأقمنا هنالك وجاءت الأعراب بالإبل والسمن والشعير واشترى الناس حاجتهم . وأتى إلينا سيدي خليفة- لدار الركب- بأولاده وجلّ أصحابه ، وأخذوا العهد . وأولاده جماعة أولهم الحاج عيسى ، وقدّمناه على من أخذ العهد منّا منهم وأذنّا له في تلقين الأوراد لمن رام الانخراط في سلكنا من جماعتهم . وبعثت أصحابنا لسقي الماء ، للعويجة ، وهو ماء زعاق أجاج لا يكاد يساغ ، وبها آبار متعددة حفرها أولئك الأعراب لسقي مواشيهم ، إلا أنّها تعذب أول ما تحفر ، ثمّ ترجع لأصلها ومشاكلة أخواتها ومحاكاة شكلها . سبحان الخلاّق العظيم ! وزعم أهل تلك النواحي أنها تبقى كذلك يوم الحفر وثانيه ، وشوهد فيها خلاف ذلك . وأتى أصحابنا منها بماء عذب لا بأس به أفضل مما بعدها وما قبلها من المنعم إلى النعمي ، وإلا فهذه المفازة اشتمل ساحلها على معاطن متعددة وآبار كثيرة يحفرها أرباب المواشي ، يسقونها عليها .

ثمّ ظعنّا منه يوم الأحد سحر خامس عشر جمادى الأولى ثاني يوليه . وصلّينا الصّبح بعد انشقاق الفجر بوادي مسعود.وأضحينا بأوائل الشقفة[3]، شرقيها . فسرنا وملنا ذات اليمين لمعطن المنشي[4] زعم بدويّ أنّ بها بئراً ماؤها عذب.فأتيناه ، ووجدنا آبارها كغيرها.وسقينا دوابنا وقِلنا على ربوة

---

[1] كذا في النسختين.

[2] في ف: العويجة.

[3] كذا- ولعلها (الشق).

[4] ف: لمنيشي.

بساحل البحر مشرفة على أمواجه ، متعرضين لبرودة نسيمه . وصلينا الظهر ، وسرنا أميالاً . والتقينا بمحبّنا الحاج عبداللطيف قرب العصر ، وجاوزنا الأحمر ، وسرنا . فإذا جماعة من أولاد سيدي ناصر من قرابة سيدي خليفة المذكور . ولما أشرفنا على الأحمر نزلنا لصلاة العصر ، وارتحلنا ونزلنا الأحمر بعد العصر ، يوم الأحد ، وبتنا به وتمتّع الناس بمائه- وهو لا بأس به إلا أنّه ليس بذلك العذب . وأتى الله من عند الحاج عبداللطيف بشاتين وشيء من التمر- والله يتقبّل منه .

ثم ظعنّا منه،وأضحينا على أكمة على حد سبخة الأحمر. ثم نزلنا النعيم ارتفاع الضحى ، يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى ثالث يوليه ، فإذا بمائه عذب فرات طيب زلال ، إلا أنه لم ينفع للهوى مع برودته[1] . وتسوق أعراب الركب بشياه ، واشترى منها الحجاج حاجتهم . وبتنا به . وشيعنا مع محبّنا الحاج عبد اللطيف كتباً لأعيان الأعراب في شأن ناقة الحاج عبد العزيز- فالله يجمعه بها .

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا فوق السلطان ؛ معطن بإزاء البحر . وقلنا بمنشى ؛ مدّينة- بالتصغير- فيها معطن على ساحل البحر وماؤه عذب . وصلينا العصر بإزاء كروش ، ونزلنا بالقارية[2] طفل العشي .

ثم ظعنّا منه سحراً . وقلنا في الطويل . ولما زالت الشمس وصلينا الظهر سرنا ونزلنا الزعفران ، يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى خامس يوليه . بعد الزوال بخمس وثلاثين درجة . ووصل أول الركب مع أول العصر ، وتلاحق الركب ونزل آخره بعد العصر وقبل الاصفرار . ونزل[3] الناس لسقي إبلهم وملء قربهم من مائها العذب الطيب الكثير الغزير النمير . ووجدنا هنالك طائفة

---

[1] كذا في ف. وفي ف: إلا أنه لم ينفعل للهواء مع برودته.
[2] ت: بكارية. ف: بالكارية.
[3] ف: وذهب.

من فقراء أعراب تلك النواحي يرفعــون نسبتهم لسيدنا عثمان بن عفـــان ذي النورين – رضي الله تعالى عنه وأرضاه . كانوا في ردّ ما نهبهم الظلمة ولد أبي كلية وحزبه[1] . دمّر الله الظلمة تدميراً وتبرّهم تتبيراً . وردّوا لهم أجمالاً . وأتي الله الكريم من واحد منهم بقعود دفعته للفقهاء . كما منّ الحاج عبدالصمد ابن علي الأشهب بشاتين دفعتهما للأشراف . والله يتقبل من الجميع حسن فعله .. آمين، آمين. وأتانا المحب المسنّ الأخ في ذات الله ، رفيق والدنا في هذه الطريق في حجتنا الأولى عام سبعين وألف ، سيدي محمد جنجار[2] – بجيمين– ومعه مسلاخ سمن[3] . وبقية حليب في وطـــب له ودفع لنا ذلك . فالله يجزيه عنا خيراً كغيره من أهل المحبة . وأصحب معه والده ، وبات معنا في الركب .

ثم ظعنّا منه يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى سادس يوليه– باللام– بعد صلاة الصبح ،وأضحينا بقرارة السدر، وقلنا في وادي القبيبة ، وصلينا الظهر به . وسرنا وصلينا العصر بمطراتين[4] وبئرها ماء غزير مستبحر كثير ، مشوب بملوحة ما تميل إلى مرارة . وسقينا به دوابنـــا ، وجلسنا هنيهة فلاحت لنا أولية الركب . وسرنا ونزلنا غربي جارف[5] ، قبيل الاصفرار . ونزل آخر الركب طفلاً .

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا ببرّ ثمد[6] ووادي بيِّ[7] . ثم قلنا ببئر حسان ووجدنا بها ماء المطر ، وسقينا دوابنا وصلينا الظهر وسرنا ، ونزلنا لصلاة العصر شرقي شرف حسان ، ونزلنا غربي الشرف بأميال قبيل المغرب ، وتلاحق الركب ونزل آخره بعد المغرب .

---

[1] ت: ولد أبي كليلة وحربه. : وجربة.
[2] ف: جنيحان.
[3] ف: تمر.
[4] ت: مطرا. ف: مطرون.
[5] ف: جارق.
[6] ت: أثمد. ف: تمت.
[7] بياض في ت.

وحسّان الآن اسم على موضع فيه مورد ماء ضنين قلما يوجد فيه ما يكفي الركب إلا في أزمنة الخصب . وكان في الأصل اسماً لعامل بعض ملوك بني مروان . بعثوه لغزوة بعد موت عقبة بن نافع أمير أفريقية وفتحها ، وارتد غالب أهل أفريقية فنزل في هذا الموضع وبنى قصوراً تسمى الآن قصور حسّان . وكان يغير من هناك على أفريقية . وأقام بذلك المحل مدة . وخبره مذكور في تواريخ فتوح أفريقية .

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا بغربي قرارة أبي رحيم وقلنا- بعد أن قطعنا من سبخة المخيطة قطعة- على ربوة بذات اليمين ، متعرضين لبرودة نسيم البحر ، وصلينا الظهر ، وخضنا المخيطة . وصلينا العصر بالهويشية ونزلناها قبيلة بدقائق . وتفاوض الناس في أمرهم ، واتفقوا على المبيت بها ، لسقى الإبل . وتناول الماء من احتاجه وتلاحق الركب ونزل آخره والشمس مرتفعة .

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا بأول الصقعة ، على وزن ثمرة . بصاد مفتوحة فقاف ساكنة فعين مهملة- رملة مستطيلة على يسار السبخة . وقلنا بجانب( ) [1] وصلينا الظهر به ، والعصر بالمنزلة . ونزلنا البويبات طفلاً ، ونزل آخر الركب بعد الغروب .

ثم ظعنّا منه ،وأضحينا بسميدة- معطن برملة على يسار السبخة به ماء لا بأس به ،غير أنه به ملوحة ما.وقلنا بالعريرة- معطن بإزاء السبخة بساحل البحر ، به ماء عذب فرات طيب غزير من أعذب المياه ، يقرب من ماء وجدناه بوادي التميمي.وصلينا الظهر وارتحلنا ونزلنا لصلاة العصر على حد سبخة أبي شعيفة . وسرنا بعد ميل وبتنا بربوة على يمين الطريق .

ثم ظعنّا سحـــراً ، وملنا- بعد طلوع الشمس- ذات اليمين لزيـــارة أبي

---

[1] كلمة غير واضحة تقرأ في ت: البحارين- وفي ف: البحار.

شعيفة . وذهب الركب أمامنا لبلد ولي الله باتفاق ، وقطب العارفين على الإطلاق ، أبي العباس سيدي ومولاي أحمد زروق . وانصرمت مراحل برقة التي فيها على ألسنة العوام : " غرقة ولا برقة " (ولاحت لنا أعلام العمارة ، وظهرت لنا من الدنيا الأمـارة)[1] . ونادى الحجيج : " البشـارة ! هـذا أوائـل العمـران قد كشف لنا أستاره ! " فساروا مظهرين الفرح ، ومسرّين الترح ، ومخفين ذعراً ، كأنهم لم يروا العمارة دهراً ، بل المفاوز سهلاً ووعراً والبراري (يباباً وقفراً)[2] وقد خيل لهم أن المباني شيء ما عرفوه ، وجالت الأفكار والأبصار في أرجائها كأنها أمر ما ألفوه . وكأنهم أموات نشروا ، ومن المقابر حشروا . وما أسرع انقضاء سفر تنقضه الليالي والأيام ، فكيف بعمر مرت به الشهور والأعوام ؟ ! نسأل الله حسن الختام ، بالموت على الإيمان والإسلام ، والعفو والعافية على الدوام .

ولما زرنا أبا شعيفة قصدنا نحو الإمام زروق ، فإذا بخيل تراءت لنا تعدو نحو الركب ، ثم كرت راجعة إلينا قاصدة نحونا ، فإذا بأخينا ومحبنا (سيدي محمد بن مقيل جاء لملاقاتنا مع الأحب سيدي محمد بن صالح وابن أخي)[3]سيدي محمد ابن منصور وسيدي محمد الزعفراني مع جماعة من إخواننا أولاد ابن غلبون . فالله ينفعهم ويرفعهم آمين . فزرناه ، ونلنا من زيارته ما أملناه ، وقضينا الوطر منها والغرض ، وأدينا بعض الحق المفترض . ولحقنا بالركب ووجدناه مخيّماً خارج البلد ضحوة يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادي الأولى عام اثنين وعشرين ومئة وألف ، حادي عشر يوليه .

وأتي الله من عند الأحب ابن مقيل بجملة وافرة من الخبز والمقروض ، نوع من الأطعمة يتخذ من الدقيق المعجون بالسمن والعسل ، وكثيراً ما

---

[1] ساقطة من ت.
[2] ساقطة من ت.
[3] ساقطة من ت.

يستعمل بالبلاد المغربية . وكذا بعث إلينا بمخيمنا هذا الأخ سيدي علي بن عبدالصادق ثلاثة أجمال موقورة تمراً ودقيقاً وشعيراً مع شئء من الكعك . وأضافنا أولاد ابن غلبون بآنية من الطعـــام الثريد والكسكسو ، وأطعمنا أكثـــره الســـادات الأشـــراف والطلبة والجمّالين ، فالله يتقبل من الجميع . ولحق بنا أيضاً هنالك الأحب الأود سيدي عبدالســلام بن عثمـــان ، مع والـــده وبعض إخوانه وأصحابه ، والله ينفع الكل بقدر نيّته . وتسوق أهل البلد الركب بالفواكه والشعير والتمر والدقيق ، واشترى الناس حاجتهم من ذلك.غير أن الدقيق ليس فيه بلاغ لندرته.وغير ذلك كفى الناس فاستكفوا .

ثم ظعنّا منه بعد صلاة الصبح ، الأربعاء أول يوم من السمائم- نستكفي الله شر سمومها . وملنا ذات اليمين بعد أن سار الركب لزيارة الإمام الهمام أبي العباس زروق ومواعدتهم مع جماعة من أصحابنا فزرناه ، ودعونا الله تعالى لنا ولأحبتنا وقرابتنا وجماعة المسلمين عموماً وخصوصاً مما حضر لنا من الدعوات. ثم خرجنا منه وذهبنا لزيارة الأحب المجذوب ، سيدي أبي تركية، ومعنا والده دليلاً يدلنا الطريق إليه . ثم زرنا سيدي فتح الله بطرف البلد ، وأطعمنا ناس هنالك دلاعات وبطيخاً، وأكلها الأشراف والعلماء وأعيان الحاضرين .

وسرنا وقلنا على أكمة مشرفة متعرِّضين لبرودة النسيم . ولحقنا هنالك الأخ سيدي على بن عبدالصادق ، مع جماعة من أهل المحبّة ، فعزيناه في ولده . وصلينا الظهر وسرنا جميعاً إلى أن حان وقت العصر ، فصلينا وانتظرنا الركب . فلما تلاحـــق سرنـــا ونزلنا قبل الاصفـــرار بغـــوط شرقي سيلين[1] ؛ بئر بطريق الحجاج .

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا بربوة بإزاء سانية واسترحنا وقلنا بزليتن[2] ، بإزاء ولي الله سيدي عبدالسلام ، وصلينا وذهبنـــا لزيارته . فزرناه ولحقنا

---

[1] ف: ميلين.

[2] ف: بظليتن.

بالركب خارج البلد ، ونزلنا الحطيبة قبل العصر وبتنا بها .

ثم ظعنّا منها،وأضحينا بدار الأخ سيدي علي بن عبدالصادق مع جماعة من الحجاج ، وأطعم الناس بما قدر من الطعام ، بل أوسعهم كسكسو ، فالله يتقبل منه ، وخرجنا من هنالك ، ومال بنا المحب الحاج عثمان[1] ذات اليمين لزيارة سيدي مفتاح ، بساحل البحر ، فزرناه ، وقلنا هنالك بساحل البحر ، بحيث تكاد أمواج البحر تضرب أطناب الصوان ، متبردين بنسيم البحر (لشدة الحر)[2] في هذا اليوم . ولما صلينا (الظهر)[3] وهبت أرياح باردة سرنا ولحقنا بالركب وقد خيّم بوادي لبدة- وتقدم بعض التعريف بها- بين الظهرين . وبتنا به .

ثم ظعنّا منه ومررنا بمطعم الحاج سيدي أحمد بن جحا وقد بني خيمة بالطريق متعرضاً للركب ، وتلك عادة منذ سنين . يطعم الأركاب العصيدة والخبز واللحم وما تيسر له . وتعرض لنا وألحّ ، وجاء يسعى (على قدميه)[4] ، على كبر سنه . ولما رأينا الجد منه ساعفناه لمراده وشايعناه نحو مرتاده ، وتركنا غرضنا لغرضه . نزلنا لديه ، وأطعمنا خبزاً ولحماً وعنباً ، وأتى بقفة عنب وقال: " هذا للحريم ، إبعثوها لهن " . ففعلنا . والله ينفعه بنيته ويثيبه على حسن طويته .

ثم انحدرنا من النقازة في بقية من برودة النهار، وقِلنا تحتها بإزاء جب وجدنا به ماء مطر حتى فات الركب.وسقى الناس حاجتهم . وصلينا الظهر وسرنا . ونزلنا شرقي( )[5] عند مجرى سلمى[6] قرية من قرى مسلاتة .

---

(3) ف: عصمان.

(1) ساقطة من ت.

(2) ساقطة من ت.

(3) ساقطة من ت.

(4) كلمة غير مقروءة في النسختين.

(5) كذا في النسختين. وهي عند التجاني: حصن سلمة.

ثم ظعنّا منه ، وأضحينا قبيل تورغت . وودعنا أخونا سيدي محمد بن مقيل ، يريد الذهاب إلى طرابلس ليهيئ لنا منزلاً يؤوينا وأصحابنا ، هيأ الله له منزلاً في الجنة . ثم قلنا بتورغت عند بئر هنالك كان حفرها الأخ عبد السلام بن عثمان ، بها ماء بارد عذب . تقبل وادي الرمل اصفراراً ، يوم الأحد آخر جمادي الأولى . ونزل آخر الركب مع الغروب . وراقبنا هلال جمادى الثانية فظهر استهلاله وتبين إهلاله . نسأل الله أن يهله علينا باليمن والأمان والسلامة والعافية ومزيد الإيقان .آمين،آمين،وبجانب منزلنا هذا بشاطئ البحر معيطن به ماء (عذب) [1] .

ثم ظعنّا منه يوم الاثنين ، الأول من جمادي الثانية- رزقنا الله خيره- سابع عشر يوليه وسادس السمائم ، بعد صلاة الصبح ، وأضحينا- بعد مجاوزة وادي الرمل بأميال- على ربوة على يمين الذاهب مغرباً ، مشرفة على البحر ، يتراءى لنا منها نخيل تاجوراء . ثم سرنا ونزلنا تاجوراء وقت الظهيرة ، وقلنا بها ووجدنا الأخ في ذات الله تعالى ، والأحب في جانبه ، سيدي أحمد بن جابر بخيمته هناك في انتظار مع جماعة من أصحابه وولديه . وأطعمنا طنجيراً[2] من حوت مطيب بالخل وأربع كسرات كبار . وأطعمنا ذلك من حضر من أصحابنا ، وأخذنا منه قطعة لحريمنا . فالله يتقبل منه . وأخبرنا أن الأخ الأود سيدي محمد المكني هنا خرج لملاقاتنا وأنه بعث في طلبه .. وأتانا طلبه . وأتانا استواء الشمس مع سيدي إبراهيم مصطفى وسيدي محمد سحبان وسيدي أحمد بن عبد اللطيف ، من أولاد ابن مريم وأخبرونا جمالنا التي أودعنا عنده مشرّقين ، مع جماعة وافرة من أهل المحبة . وجلسنا معهم هنيهة

---

(1) ساقطة من ت.

(2) الطنجير معرب بمعنى إناء الطعام، وبخاصة طبخه. وهو يساوي (الحلة) عند أهل مصر، وينطقه أهل ليبيا: الطنجرة: والتنجرة. والحوت يعني السمك على التعميم عند عرب شمالي أفريقيا. والمقصود: وعاء ملئ سمكاً مطيباً بالخل.

ريثما تزول الشمس . ولما زالت انفضوا متفرقين في ظلال الأشجار أهبة للصلاة. وأضافنا هناك أصحابنا سيدي عبدالرحمن عُمار(بالضم والمد كعُقاب- هكذا يسمّونه.وذكر أن سبب ذلك أن جدهم كان يلقب خراب . فجاء مجذوب فقال :" إنك عمار لا خراب[1]".فلقب بهذا منذ وقتئذ.والله أعلم . والاسم الآخر والمناسب للقضية:عبد الرحمن عمارة- كرسالة . والله أعلم بحقيقة الأمر)ومن معه من أهل المحبة.وجاءوا الركّب بنيف وعشرين إناءً من طعام وشعير وتين ودلاّع.فالله يتقبل منهم ويجازيهم أحسن الجزاء.

ثم ظعنّا منه صلاة الصبح . ومال بنا الأخ سيدي عبدالسلام[2] المذكور لداره داخل البلد ، فأدخلنا- والله ينفعه- محله مع جملة وافرة من أصحابنا والسادات والأشراف وطلبة العلم . وأوسع الناس شبعاً ورياً . فالله يتقبل منه ويوسع عليه ظاهراً وباطناً ، ويكون له وليّاً ونصيراً وظهيراً . وخرجنا من عنده وعزمنا [3] الأخ نجل الولي الصالح سيدي عبدالحفيظ ، وطلب منا الدخول لمنزله فأسعفناه لذلك تطييبا لخاطره . وأدخلنا منزله وأطعمنا ما قدر له من الطعام والفواكه . فالله يذيقه حلاوة الإيمان ومطاعم الإيقان ... آمين . وخرجنا من عنده ولحقنا بمنزلنا - سانية الأخ المصافي الزلال الصافي الأولاد سيدي محمد بن مقيل . ونزلنا بدويرة بها ، ونزل أصحابنا بعرصة بإزاء الدويرة بأخبيتهم ، ضحوة يوم الثلاثاء ثاني جمادى الثانية والسابع من السمائم . وبعث لنا المفتي سيدي محمد المكني شعيراً وتبناً للبهائم ودلاعاً ، فالله يتقبل منه . واطمأن بالركب القرار واستقرت بهم الديار ، وألقوا عصا التسيار واستبدلوا حلاوة الإقامة- وإن نقصت لذاتها بالبعد من الحرمين والفرقة بمرارة برقة ، فيا شوقه إلى الحرمين ويا شوقه ! نسأل الله إليهما الكرة بعد الكرة والمرة تتلو المرة .

---

[1] ت: عمار الأخراب.

[2] ف: عبدالرحمن.

[3] ف: وعن لنا.

الحاجية

واجتمعنا بالأحبة ، وأزلنا ما أنتجه النأي من الوحشة (والكربة)[1] واحتقبنا من مطايا الوصال ما أتحفه المولى . وقرت من كل الأوراد العين[2] ، وسروا بالتحاف أثواب المواصلة ومزقوا جيب البين . وأضافنا وأكرمنا وبالغ في قضاء حوائجنا الأخ المفتى سيدي أحمد المكني- أيده الله وسدده وأرشده . ولم تزل فوائد إحسانه إلينا تترى وفرائد إكرامه تتوالى ورداً وصدراً- كابن أخته الودود سيدي محمد بن مقيل ، كان الله له في الرحيـــل والمقيل . وأقمنا بها خمســـة عشر يوماً - عدا يوم النزول ويوم الرحيل- ننتظر من الأعراب الكراء ، ومن السوق الشراء وهما مع كلّ وما يشاء . واشتغل الناس في الاستعداد بما يقوم بأمورهم من بيع ما أتوا به من السلع ، وطلب سلف إلى أمد متسع . ولم نزل بين ذلك مترددين ، ولإجالة الأفكار فيه مستعملين ، ولمالك الأمر أولاً وأخرا مستجدين حتى أبـــدى الله تعالـــى طي ذلك بما سبـــق في أزله من الجمـــع بين ثاني التقسيم وأوله .

وورد علينا والي البلد الباي [3] ، والتقينا يوم الجمعة بذي السلطنة الدولاتلي [4] إبراهيم داي [5] . وتردد إلينا المكنية [6] ، وهم ناس لا بأس بهم ، يطلبون الإعانة على الخير بعد التوفيق إليه من الله تعالى ، وأوصيت[7] الكل بتقوى الله والذب على خليقة الله تعالى . كل بما قدر عليه من يـــد أو لسان وبنـــان وجنان[8] ، والشفقـــة على الرعية ، وتعظيم ما عظـــم الله من أهـــل البيت وعلمـــاء الأمة وصالحيها .

---

(1) ساقطة من ت.

(2) ف: وقرب من كل الأوراد المعين.

(3) ف: البي.

(4) ف: الدولاتي.

(5) ت: طاي. ف: صافي.

(6) ت: المكنيت. ف: الكتبة.

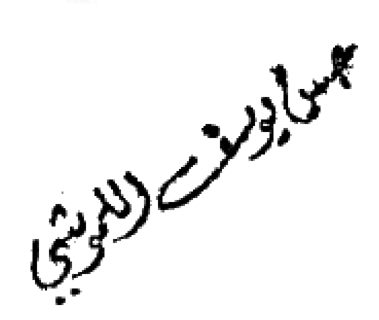
(7) ف: وأصيت.

(8) ت: أو جنان وحنان.

فأجابوا : سمعاً وطاعة . وأظهروا الاعتناء بأجمال سرقت للركب . فالله تعالى يوفقنا وإياهم .

ولحق بنا خلال هذه المدة الأخ سيدي علي بن عبد الصادق الجبالي[1] مع جماعة من أهل المحبة ، ووقف معنا في شراء الإبل (الأخ المصافي والزلال الصافي سيدي عبدالرحمن عمار التاجوري)[2] . فالله تعالى يجازيه عنا خيراً ويقيه ضيراً . وممن أعاننا على حوائجنا وأكثر الترداد إلينا مدة إقامتنا الأخ الصالح سيدي أحمد بن صالح . أخذ الله بيده إليه أخذ الكرام . وكنا عزمنا على الخروج قبل هذه المدة فتباطأ الحجاج لقضاء مآربهم وتوفية مطالبهم ، ولتنقضي أيام الإقامة المسطرة في الكتاب ، التي لا قدرة على محوها لمصيب ولا لذي ارتياب . والحمد الله على كل حال .

أقمنا بها خمساً فخمساً فأربعاً ... فيوماً له يوم الترحل ثان



---

[1] ف: الجبلي. ت: الحلي.

[2] ساقطة من ت.

ذكر خروجنا من طرابلس وارتحالنا منها

أمنها الله ... آمين

كان ارتحالنا يوم الخميس لثماني عشر خلت من جمادي الثانية بعد أن اكترينا جل المحتاج إليه من الإبل بستة وثلاثين ريالاً قراميل من سكة الوقت بالبلد . واشترى من اشترى من الحجاج واكترى . ونزلنا طرة ضحوة ؛ بلدة على أميال من المدينة ، بها سوانٍ عذبة ومزارع ونخيل ، وبها ناس قليلون . ولحق بنا من الحجاج من له أرب بالمدينة يومئذ . وأقمنا يوم الجمعة (ليتلاحق الركب ويتكامل خروجه . ولحق الناس كلهم بعد عصر يوم)[1] الجمعة إلاّ بعض أهل السادات الأشراف أرادوا أن يبكروا بكرة ، السبت . ولحق بنا جماعة وافرة من أهل المحبة لقصد الوداع ، وودعناهم صبيحة السبت .

ثم ظعنّا اصفراراً وتركنا بمنزلنا جماعة وافرة من ركبة البغال في انتظار السادات المتخلفين عن الركب . وتبعنا جماعة من أهل المحبة ومررنا بكركاش[2]– بلدة بها زيتونات ، وبها من الصالحين سيدي حامد ، رجل صالح تقادم عهده ودفن بساحل البحر، ومسجد سيدي علي الكركاشي[3] ... وزنزور[4] ؛ بلدة واسعة بها زاوية وأرض ومزارع وبها

---

[1] ساقطة من ت.

[2] كذا في النسختين.

[3] كذا في النسختين.

[4] ن: مزترور.

الحاجية

مدرسة من أحسن المدارس التي في تلك السواحل ، وعلى بابها قبر رجل من الصالحين قريب العهد ذكروا أنه يعرف بالعريفي[1] .

قال شيخنا أبو سالم : " وأخبرني من أثق به بحكاية وقعت لبعض الناس مع صاحب هذا القبر في شأن الدخان تدل على قبحه وخبث متعاطيه . قال : وذلك أنه كان عند قبره زيتونة كان يجلس إليها في حياته . فجاء رجل بعد موته فجلس في ذلك المحل وشرب فيه الدخان ، وكان من أكابر البلد . فلما نام في الليل جاءه ووقف عليه وضربه على رأسه ، وقال : (يافلان ! مكان كنت أجلس إليه ، فجئت إليه فنجسته !) فأصبح الرجل أعمى . أخبرني بذلك من أخبره " أ هـ .

.......................[2]

رجوع إلى ما نحن بسبيله من تعداد المراحل وضم المنازل :

وشيعنا جماعة من أصحابنا من أهل المحبة ، وأضحينا بطرف أرض صيّاد على ربوة . وتفرق أصحابنا في ظلال الشجرات والنخلات . نسال تعالى أن يعيننا بمعونته وتيسيره . آمين . ونزلنا بـازاء سانيـة حتى صلينا العصر ، وخيمت الخيم . فملنا بخيمنا ، فبتنا بنسيم بارد تعرف أنه من الأواحد .

ثم ظعنّا بعد صلاة الصبح ، وأضحينا بالزاوية الغربية ؛ بلدة نخيل وفواكه وأشجار وعمارة . وتعرض لنا، مع جماعة ، المحب سيدي محمد المكني . ثم تلقانا أهل الزاوية أفواجا أفواجا . نسأله تعالى أن يعاملهم عنا بفضله ويسبل على الجميع ستره المنيع .

وسرنا،ونزلنا دحمان بين الظّهرين.وتلاحق الركب ، مع العصر . وبتنا هنالك.ولما صلينا الصبح ودّعنا إخواننا الذين يستعفون، فاستودعناهم الله ،

---

[1] ت: بالعربي.

[2] الفقرة المحذوفة بحث فقهي في الدخان ومتعاطيه خارج عن السياق.

واستودعنا الأخ سيـــدي محمد بن مقيل وجمـــاعة معه ، وسيـــدي عبدالله بن ( )[1]. وطائفة معه وسيدي علي بن عبدالصادق مع جماعة ، ومقدم إخواننا بتاجوراء سيـــدي عبدالرحمن بن عمار ، وسيدي أحمد بن جابر مع أصحابه . وسيـــدي حامد – من أولاد سيدي محمد الصيد – وقدمنا على فقراء المدينة الأخ الصالح والأحب الناصح أحمد الساحلي وسيدي عبدالله يحيي بن صالح . نسأل الله تعالى أن ينفع الجميع بمنه وكرمه ... آمين .

ثم ظعنّا منها وأضحينا بازاء أم الحلوف ، على ربوة بإزاء البحر على ماء عذب . وصلينا الظهر . ووصلنا مليتة قبل العصر . ولحق أهل الركب مع أول العصر . وتلاحق الركب عن آخره قبل الاصفرار وبات الناس على ماء قليل ينزح نزحا ونزحوه وهو– على قلته– صالح . وذهب الناس في طلب الماء لآبار عملت هنالك ، لعلهم أن يستقـوا مـــاءً منها . فسقوا ما احتاجوا وباتـــوا في يمن الله وعافيته .

واجتمعنا هنالك بالرجل الصالح ، رفيق الوالد في طريق الحجاز عام تسعة (ومائة وألف) سيدي عبدالرحمن بن عبدالله من أولاد سيدي عبدالنبي الأصفر ؛ ناس صالحون من عرب تلك النواحي ، ثم منها ، وقلنا بالزاوية الشرقية . وتلقانا أهلها بحليب النوق على أفراسهم . وهم ناس مباركون . وطلبت منا السعافات ، من عرب تلك النواحي ، النـــزول وجلسنا معهم . وفيهم محبة صادقة . فالله ينفعنا بنيتهم .. آمين . ثم سرنا ، وتلقانا والدهم– رجل مسن على فرس– يسمّى سيدي العاشق .

ثم ســـرنا ونزلـــنا بطـــرف وزْدِر[2] الغربي من الـــزوارات الغربية ، وقـــت الـــــزوال بنحـــو عشـــرين درجـــة . وبهـــا ســـوانٍ عذبـــة باردة . والـــزوارات تسمى الشرقيـــة منهـــا الـــزوارة الكبـــرى ، وتسمـــى كـــوطِ– بضـــم الكـــاف وكســـــر الطـــاء المهملـــة– وهي

---

[1] بياض في الأصل في النسختين.
[2] ت: وسدر.

الحاجية

قرية أضخم من الزوارة الغربية وأكبر غاية . وفي أهلها شجاعة وعزة نفس . وكانت طاعتهم للعرب مشوبة بعصيان . ومنها قرية ولولا- بينهما عشرون ميلاً ، وهما قريتان متشابهتان عذوبة ماء . وخارب بناء ولول هذه منتهى أرض الزوارات من ناحية الشرق . وسميت بذلك لأن أقواما من العرب يعرفون ببني ولول نزلوا بها ، وكذلك تعرف بالقديم بأرض بني ولول . وهي أكثر بقاع الأرض ضيابا ، ولأهلها دربة في صيدها بأشراك ينصبونها لها . تميزوا بذلك عن غيرهم . وأما الزوارات الغربية فتسمّى الصغرى ، وتعرف أيضاً بوطن بلد المرابطين ، وهي بلد ذات نخل كثير باسق الارتفاع ، وماؤها في غاية العذوبة- غير أنه قد استولى الآن الخراب على هذه القرية ، فليس العامر منها إلاّ بعض العامر. وأمام هذه القرية- بمقربة منها - قصر يسمى وزْدِر - بكسر الواو وسكون الزاي وكسر الدال المهملة- قد امتحى رسمه وبقى اسمه وتخرب أكثر البناء الباقي بجوانبه ، ولم يبق من أهله إلا ناس قليلون ..

* * *

2

مِنَ الرّحلةِ المنَالِيّة

مِنَ الرِّحْلَةِ المنَالِيّة
لعبد المَجيد بْن على الحَسِينِي المنالي الزبادِي
(قام بها عام 1158 – 9 هـ)

ذكرى دخولنا مدينة طرابلس

(حرسها الله وبارك فيها)

. . . .

كان دخولنا طرابلس ضحى الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان ، وكان نزولنا حيث ينزل ركب الحاج في وسطها ، وهي كبيرة وفيها مساجد وأسواق وتقام بها الجمعة . وأهل البلد يسمونها "الظهرة "– من الظهور ،لأنها ظاهرة وهي عارية من النخيل ، بخلاف العمارات المتصلة بهذا البلد من كل جانب ، فإنها كلها وسطها النخيل ، والحجاج يسمونها "الزرارية"– باسم رملة متصلة بها بينها وبين البلد ،يعمر بها سوق عظيم.

وقد اجتمعت هنالك في منزلي بالفقيه العلامة البركة أبي حفص سيدي عمر بن العلامة البركة أبي عبدالله سيدي محمد بن على المغربي الشهير بالسوداني . من أمثل أهل زمانه علماً وديانة ، وحلماً وعفافاً وضيافة ، إلى أخلاق حميدة وخصال عديدة ، وله مشاركة في العلم وإصابة في الفهم ، ويد في الفقه طويلة ونسبة لطريق القوم جليلة . أخذ الطريق عن شيخ الشريعة والطريقة ومحقق أهل الحقيقة أبي العباس

الحاجية

سيدي أحمد[1] بن الأمام الكبير والهمام الجليل الشهير أبي عبدالله سيدي محمد بن محمد الشهير بابن ناصر- رضي الله عنهما وأدام لنا النفع بهما. وقد فرح بنا فرحاً كبيراً وودنا وداً كبيراً. ومازال يتعاهدنا بالزيارة والمذاكرة حتى خرجنا . وله إخوة نجباء أهل دين وعفاف . ربما ترددوا إلينا معه- جزى الله الجميع عنا خيراً .

وممن ورد علي أيضاً في منزل الفقيه الأديب ، والنبيه اللّبيب ، الذكي الأريب ، البارع الباهر ، الناظم الناشر، أبوعبدالله سيدي محمد بن محمد بن عبدالكافي يدعى بوعثور ، الصفاقسي داراً نزيل طرابلس . وله فهم مصيب وذكاء عجيب ، وله ولوع بعلوم الأدب ، ينسل إليها وتنسل إليه من كل حدب .وقد أخبر أن عندي نسخة من (الرحلة العياشية) ، وعنده نسخة منها فيها شيء من التصحيف . فأراد مقابلتها من نسختي ، فكتب هذه الأبيات يستعيرها مني :

" يامن سما قدره في الخافقين ومن ... رقى إلى درجــات العــزّ والشرف
مــولاى سيــدي عبدالمجيد أطــال ... الله عمـــــره في الخيرات والترف
عبيــــدك الراقــم الأبيات يطلبكم ... في رحلة الشيخ عبدالله ذي التحف
أعني أبـــا ســالم العيــاشي نسبته ... لـــه الوراثـــة في العليا عن سلف
أعــره لـــي ولك الفضـــل المبيـــن ... وكـــم ممن لقاصده بالمكرمات يفي
فاجبــر لقلــب كسير جاء يسألكم ... فيها فـــاني بهـــا في غاية الشغف
سبــع ليـــال وتأتيكم على عجــل ... لازال ذكركم في الناس غير خفي"

فأعرته أياه .ومازال يتردد الإقامة للمذاكرة في مسائل منها ومن غيرها.وأطلعني على بعض منظومه ومنثوره، وطلب مني التوقيع عليه . فساعفته وناولته بعض قصائدي في المديح ، ورويته إياها .

وفي يوم الثلاثاء أول يوم من رمضان دخل الركب الوارد من المشرق القاصد بلاد المغرب ، فنزل أيضاً هاتيك الدور، وشرع كل من الركبين

---

[1] المعنى ابن ناصر صاحب الرحلة السابقة.

في قضاء الأمور ، وأخذنا في كتب الكتب إلى من خلفنا بفاس من الأحبة ، كالأهل والأشياخ وذوي المحبة .

ذكر الرحيل من بلاد طرابلس

(حرسها الله تعالى بمنه)

كان خروجنا من مدينة طرابلس متوجهين إلى بلاد المشرق يوم الثلاثاء ثامن رمضان سنة (1158)- فبتنا عند عين غافق على ساحل البحر . وارتحلنا من الغد فمررنا صباحاً بوادي الرمل ، وقلنا بوادي المسيد- وتعديناه بأميال ، وبتنا ومن الغد لم نزل نسير في أرض ذات شعوب ووهاد وكزازة ، حتى بتنا عند جبل النقازة .

ومن الغد ارتحلنا وقطعنا أرضاً فيها آثار أبنية كثيرة . وفي سفح هذا الجبل من جهة الساحل مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة - قد خلت قديماً وبقيت آثارها ، وفيها مبانٍ عظيمة وهياكل جسيمة وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان- وقد أكل البحر الكثير منها وبقيت أعمدة الرخام وغيره قائمة وسط البحر . قد أحاط بها الماء .. وفي التواريخ وصف هذه المدينة بما يقضي منه العجب- ونحن الآن نسير في وسطها . فلا نرى(إلا)الأبنية مائلة ، على رؤوس الجبال متقابلة - فمنها ما نراه عن يميننا مد البصر ومنها ما (نراه) عن شمالنا مد البصر ، ومنها قريباً منه ، وأما البحر الذي أكل طرفاً كبيراً منها فأقل ما بيننا وبينه ميلان . والحدس يقضي بأنها كانت عظيمة مساحتها أميال كثيرة ، كما يقضي أنها خلت قبل الإسلام، سيما وكتب فتوح أفريقية خالية من ذكرها .

ويقال إن الذي بناها دقيوس ، وملكتها بعده امرأة اسمها رومية . وقيل (إن) الذي بناها ولد النمرود ، بإذن والده ، والله أعلم .

فلما قطعنا تلك الساحة ، وبعدنا عن تلك الساحة ، نزلنا إلى ساحل حامد فسرنا فيه ما شاء الله ، وبتنا قريباً من تلك المدينة الكبيرة التي هنالك ولم نرها . قال أبو سالم :

" وهي بلدة كبيرة ذات نخل كثير ومزارع وسوانٍ وزيتون- إلا أن تمر نخيل هذا الساحل رديء لا يدخر ، و(لا) ييبس إلاّ بعد إزالة النوى ، فيبقى كقطع الجلد لا قوة فيه ولا حلاوة ولا طعم ، لا تكاد تفرق بينه وبين لحى الشجر " .

قلت : وقد رأيناه ، وكما وصف أبو سالم وجدناه .

ثم ارتحلنا من ساحل حامد ولم نزل نسير حتى مررنا ببلدة ازلتين- وهي بلدة مثل التي قبلها في النخيل والسواني ، وتعديناها حتى دخلنا بلاد مصراتة فسرنا فيها ماشاء الله ، وبتنا .

ومن الغد- وهو يوم الأحد الثالث عشر من رمضان ، وهو سادس يوم من رحيلنا من طرابلس حرسها الله- نزلنا ضحى زاوية الشيخ العلامة المحقق الفقيه المحدث الصوفي الولي الكبير العلم الشهير العارف بالله تعالى الدالّ عليه ، وأعظم به من خبير ، رئيس الدائرة النبوية ، الأمين على أسرارها المصطفوية ونعم الأمير ، متبوع أهل الشريعة والطريقة ، مرجوع أهل الحقيقة ، فكل إليه بشير ، وعليه المعول عند الجميع وإليه في ما تشعب المصير . قطب مغربنا ، وإمام أئمتنا أبي العباس سيدي أحمد بن أحمد بنِ محمد بن عيسى ، البرنسي نسباً ، الفاسي منشأً وداراً ، المصراتي قراراً ، المحمدي سيرة وسريرة المستخلف على بينة من ربه كبيرة ، الشهير بزروق . رحمه الله تعالى ورضي عنه ، وعظم حرمته وقوى مدده ، وأفاض علينا منه ، وحقق إليه نسبتنا وغرق فيه محبتنا ، وجعل ذلك لنا ذخراً ، ينفعنا دنيا وأخرى- فتمتعنا بزيارته وفرحنا بها غاية الفرح ، وعددناها من أعظم نعم الله علينا وأتم مننه المسداة إلينا . صدق الله ظننا ، وحقق فيه رجاءنا ، وأجاب في كل هذه المشاهد دعاءنا بفضله وكرمه- آمين ، آمين ، آمين . والحمد لله رب العالمين .

الحاجية

ومن منن الله تعالى علي ، التي لا أقدر قدرها ولا أطيق شكرها ، أن هيأ لي كتب هذا الشيخ الجليل ومطالعة جلها، وسنى لي مدارسة أجلها ، وجعل لي بها اعتناء كثيرا، وأوصل لي منها نفعاً كبيراً. فما طالعته منها: (النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية) ، (إعانة المتوجّه المسكين على طريق الفتح والتمكين) ، وكتاب (القواعد في التصوف) ، و(عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وحوادث الوقت) ، و(النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة)- وهو مثيله وكاد يكون هو هو- ومنظومته في (عيوب النفس) ، والمسائل المسماة (بتحفة المريد) ، وشرحاه على (الرسالة)- وهما متقاربان وأحدهما أكبر من الآخر وبه اعتناء أكثر- و(شرح القرطبية) و(شرح الوغليسية) و(الجامع) المضاف إليه ، و(شرح الأسماء الحسنى) بخطه ، والسابع والحادي عشر والرابع عشر والخامس عشر والسابع عشر من شروحه على (الحكم) ، وشرح آخر جيد لم أدر مرتبته ، والأول رأيته بخط المصنف في ثلاث كراريس- والله أعلم- وقد ذكر المصنف أنه سرق له قبل تهذيبه وكذلك رأيته وشرحه الكبير على (الحزب الصغير) المسمى بـ(حزب البحر لأبي الحسن الشاذلي- رضي الله عنه ، وشرح (قطع الششتري) وشرح (المباحث الأصلية)- والمباحث كتاب منظوم في الطريق جيد في بابه لابن البناء السرقسطي الفاسي-(وأصول الطريقة) ، وكثير من رسائله .

وقد وقفت له على تأليف لم أرَ من ذكره في كتبه ، أطلعني عليه شيخنا العارف بالله تعالى سيدي محمد المدعو عبدالكبير السرغيني ، أتي به من بلاد طرابلس.أوقفه عليه بعض من لقي هنالك ممن له معرفة بهذا الشأن . وهو كتاب تضمن الكلام على أنواع أهل الخصوصية ، واستنبط ذلك من قوله تعالى : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُون الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُون لِحُدُودِ الله) وهو غاية في الجودة في بابه ، ولم أر من نسج على منواله .

وما بقي من كتب الشيخ لم أقف عليه . والذي علمته من ذلك : (شرح الإرشاد) و(شرح الغافقية) و(شرح العقيدة القدسية) و(شرح الصغير على

الحزب الصغير) و(شــرح مشكلات الحزب الكبير) و(شرح حقائق المقرى) ، و(شرح المراصد) لشيخه ابن عقبة ، و(شرح مواضع مختصر خليل) وبقيه شروحه على (الحِكم) وهي كلها نيف وثلاثون ، والذي كمل منها نيف وعشرون .

وولد- رحمه الله تعالى- طلوع الشمس من يوم الخميس الثاني والعشرين من المحرم عام ستة وأربعين وثمانمائة . وتوفي أبواه قبل (يومه) السابع ، فكفلته جدته فحفظته . وقد ذكر الشيخ في (كناشه) كيفيةَ تربيتها له . وتعلم الخرازة ثم اشتغل بالعلم في السادسة عشر من عمره ، فقرأ (الرسالة) علي أبي عبدالله الفخار وعلي السّطيّ بحثاً وتحقيقاً . ثم أخذ عن القوري وقرأ عليه (البخاري) و(أحكام عبد الحق الصغرى) و(الترمذي) وغيرها . ومن شيوخه أيضاً : الشيخ عبدالرحمن الثعالبي والمشدالي والشيخ ابراهيم التازي وحلولو والرصاع والأخضري وأحمد بن سعيد الحباك وابن فهد الماواسي والسنوسي والتنسي . وبالمشرق (أخذ) عن السنهوري والحافظين ؛ الدميري والسخاوي ، والوليين ؛ أحمد بن عقبة الحضرمي والشهاب الافشيهي ، وآخرين . وأخذ عنه خلق ؛ كالشهاب القسطلاني والشمس اللقاني والحطاب الكبير وطاهر القسنطيني ، وآخــرين . وتوفي في صفر عام تسع وتسعين وثمانمائة . وفي (كناش) الشيخ : " كان جدي أزرق العينين ، فقالوا له زروق ، فسرت في عقبه" .

وقد دخلت خلوة الشيخ التي هنالك عند زاويته، ويقال انه فيها توفى، فتبركنا بها. ووجدت فيها رجلاً طويلاً أشيب، يزار، فزرته بحسن النية . وتكلمت معه فإذا هو من المغرب، وكان يسكن في مدارس فاس ،وإذا هو قريب العهد بالوفود على ذلك المحل- وكأنه انقطع فيه للعبادة ،واسمه : أحمد زروق ،على اسم الشيخ ، وهو أيضاً من قبيلته ، من البرانس ، وهم قبيلة وافرة مشتهرة بالمغرب . فبتنا ليلتنا قريباً من زاوية الشيخ- رضي الله عنه- وفي آخر الليل ارتحلنا .

ولم نزل من حينئذ نسير النهار وجلّ الليل إلى أن نزلنا على النيل ، إلا يوم المعطن ، فإننا لم ننزله ضحى ، وفي الغالب نبيت عليه . ومعاطن

الحاجية

برقة كثيرة ، لكن منها ما هو جيد ومنا ما هو رديء ، ومنها ما هو قريب من الطريق ومنها ما هو بعيد عنها . وأشهر المعاطن التي لا يستغنى الحاج عن واحد منها غالباً ما يذكر ، ولا يحتاج لغيرها- وإن كثرت- إلا لأمر اضطر (إليه) . وأحسن ذلك ما على سبيل الاختصار يسطر .

ذكر المعاطن الشهيرة التي لا يستغنى الحاج عنها غالباً

أول ذلك : النعيم . وهو مكبر في لسان الناس . وهو أول (معطن) يشهدونه في رمل أبيض على ساحل البحر ، رمل دقيق جداً أبيض جداً يخرج منه ماء عذب جداً . وعند الدار التي ينزل بها الحاج هنالك ، جنوبيها ، عند صخرة هنالك ، قبر لأختنا وشقيقتنا فاطمة بنت علي ، الشريفة الحسنية ، من خيار نساء زمانها حسباً وعقلاً وديناً . ذهبت مع زوجها بقصد الحج فمرضت في بلاد طرابلس ، وقضت هنالك أواسط رمضان سنة اثنين وأربعين ومائة وألف ، وكان معها ولدها وأخي سيدي عبدالله . فأقام الركب هنالك حتى غسلوها وكفنوها وصلوا عليها ودفنوها. وكان في الركب جماعة من أهل صناعة البناء والتجارة ، فبنوا لها قبراً جيداً وبنوا عليه المحفة التي كانت تركب فيها – رحمة الله عليها . أوقفني عليه أمير الركب- وقد كان حاضراً جنازتها- فرأيت أثر الخشب باقياً هنالك ، وأدرت به حجارة كثيرة ، وقرأنا عليه أكثر من ختمة من كتاب الله مع إخواننا الذين كانوا هنالك يقرأون القرآن ، وفي التغريب أيضاً كذلك . وقرأت عندها (دلائل الخيرات) . تقبل الله منا كل ذلك ونفعنا وإياها به ومن أعاننا على ذلك – والله سبحانه يسلك بنا وبهم أحسن المسالك . نزلناه في التشريق ظهراً ، وفي التغريب ضحى ، وفيهما معا بتنا هنالك . وبين الزاوية وهذا المعطن نحو سبعة أيام ، يجتهد الناس اليوم في المشي حتى يجعلوها خمسة أيام ونصف يوم .

الثاني : المنعم . بين النعيم وبينه خمسة أيامٍ بالكلفة . وهو أيضاً بساحل البحر يشهد في الرمل ، ماؤه طيب جدا . وفي المفازة التي بينهما قرىً كثيرة متقاربة خالية متهدمة تسمى (اليهودية) ، والآثار تدل على أنها كانت عمارة كبيرة . وفي المرحلة التي قبل المنعم مقطع بالكبريت ، مسمّى بذلك لأن في أعلى سبخة هنالك معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين ، ومن هنالك يحمل إلى طرابلس ومصر والإسكندرية ومن المنعم يفارق الركب البحر فيتيامن عنه .

الثالث : أجدابية . بعد المنعم بثلاث ليال .قال في (القاموس): " بالجيم والدال المهملة والباء الموحدة : أجدابية- بلد قرب برقة" .

وقال في (ب ر ق) عطفاً على معاني (برقة) : " بالفتح - إقليم أو ناحية بين الإسكندرية وأفريقية" .

قلت : والموجود اليوم آثارها الدالة على العمارة الكثيرة . وهي آبار كثيرة في براح من الأرض عظيمة منقورة في الحجر ، وبقية بنيان حولها متين هائل بالحجر المنحوت . وهنالك رسم مسجد قديم . قال أبو سالم : "وجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنائه منقوشاً سنة ثلاثمائة ". إلا أن أبا سالم سماها :"الجابية"وإنما يسميها الناس اليوم كلهم - حضريّهم وبدويّهم وعجميّهم- (أجدابية) وهو الموافق لما في (القاموس) . وأما الجابية فهي الشام كما في (القاموس) .

الرابع :سلوق[1].بعد ليلتين وضحوة من أجدابية . وهي آبار أيضا في فسيح من الأرض عظيمة متقنة . وبإزائها أيضاً رسوم بناء ، إلا أنها قليلة بالنسبة لرسوم أجدابية . كما أن ماء سلوق يقل في أيام الحر ، بخلاف أجدابية . وأيضاً الغالب على ماء آبار أجدابية الجودة ، وسلوق بالعكس . وهو بمرأى من الجبل الأخضر ، قريب من مرسى ابن غازي ، وهي مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوق مسافة يوم .

---

(1) . الأصل: سلوك.

الحاجية

ومن سلوق يحمل الركب ماء سبعة أيام ، لأن طريقهم في هذه الأزمنة على السروال- وهو مسيرة سبعة أيام لا ماء فيها إلا مآجل ، قلما يصادف الركب فيها ماء ، إن كانت الأرض قريبة العهد بالمطر الغزير، وإلا فلا ، خصوصاً زمن الحر . فلا يعول الناس على ذلك ، بل يحملون من هذا المورد ما يكفيهم للسروال فإذا صادفوا ماء طيباً استقوا منه وأراقوا ما عندهم .

ومنْ غريب ما اتفق لنا أن هلال شوال أهلّ ونحن في الليلة الثانية من السروال وكان لناحية الجبل سحاب . فنزلنا عند العشاء ، وقصرنا هذه الليلة في السرى ليتهيأ الناس فيها للعيد ، فلم يتم الركب بالنزول حتى جاء النداء : " الغوث ياحجاج ! حولوا الدار ، فقد أظلكم السيل " !

فقام الناس دهشين مشتغلين بالتحويل ، وجعلت أقول في نفسي " لم نر مطراً ، وليس قربنا نهر ولا بحر .. فمن أين ؟ " فتوجهت للناحية التي يشيرون إليها فإذا هو آت قبل أن يتحول كثير من الناس ، أي قبل أن يفرغوا- لثقل حمولتهم ولكثرتهم- أما أصحابنا وأمثالهم ففي لمح البصر لم يَبْقَ لهم في الأرض أثر .

وذهبوا يروضون المنزل وتركوني هنالك أتعجب من ذلك الأمر. ففاض الماء حتى كان قريباً من الركب في أرض فسيحة رحبة . فانحاز الناس إلى المواضع العالية ،فلم يمكنهم النزول على العادة الجارية ، ولم يتحول أحد شقي الركب لأن موضعهم كان مرتفعاً فبقي شملهم مجتمعاً . ومن الغد أصبح الماء غائضاً وكل وهد من الأرض فائضاً . فارتحلنا سائرين ، والأرض- على شدة اتساعها- ذات وحل ، والقليل منها الجاف والباقي أصابه بلل . وأصبحت الغيطان مناهل ، والقيعان جداول ، والشعاب بماء سائل . فسرنا ضحوةً ، ونزلنا . فاجتمع الناس في صعيد ، وأقاموا سنة العيد- وإمامنا فيها وخطيبنا العلامة المحقق البركة الأجل

الحاجية

الراقي أحسن المراقي ، صديقنا ومفيدنا وأخونا في الله تعالي وولد عمنا في النسبة الشريفة،أبو الفضل سيدي محمد الهادي بن محمد بن عبدالرحمن الشريف الحسيني العراقي . زاده الله سمواً ، وفي المكرمات علواً. فظللنا هنالك مقيمين، والمياه عن الشمال وعن اليمين ، حتى زالت الشمس ، وصلينا الظهر. ورحلنا فجدَّ بنا السير إلى أن ذهب أكثر من ثلثِ الليل والأرض عمّها أثر السيل . فبتنا ، ومن الغد ارتحلنا ، ومررنا غدوةً بواد فوجدناه يجري من السيل المنحدر من الجبل ، فملأ الركب منه ماء أربعة أيام لئلا يمروا بالتميمي فينقصوا من السفر مدة المرور إليه ومدة الإقامة عليه- مع قلة مائه وعدم طيبه . فوصلنا السرى بالسير والسير بالسرى، ومازلنا مارّين بأثر المدن والقرى، حتى قطعنا السروال في خمسة أيام ونصف.. فأضفنا إليها يومين ونصفاً فكملت ثمانية أيام . وأصبحنا على معطن يقال له (الدفنة) .

(رجع) .الخامس من المعاطن : التميمي . بينه وبين سلوق سبعة أيام والناس يجتهدون حتى يقطعوها في خمسة أيام وضحوة . وقد أغنانا الله عنه بما ذكرنا ، فتركناه يساراً ومررنا في التغريب نزلناه ، ووردنا ماءه وحملناه وإلى ليلة صباح سلوق أوصلناه وماؤه- على قلته- ليس بالطيب ، وما أحسن إغناء الله عنه بالصيّب! وبينه وبين درنة مسافة يوم في البحر ، لأنها في مقابلتها .

وبعد هذا المورد المعاطن التى على ساحل البحر- وهي كثرة يرد الناس منها بقدر حاجتهم . فأول ما وردناه منها :

المعطن السادس : من مشاهير معاطن برقة ، وهو الدفنة . بينه وبين الدفنة كذلك[1] .

---

[1] . الجملة ناقصة. ويظهر أن بعض الأسطر سقط كما يتضح من عدم ذكر المعطن السابع.

الثامن : الجرجوب . بينه وبين ما قبله ليلتان ، الثانية منهما بعد نزول العقبة الكبرى وانبساط الأرض ، فيكون البيات . وفي الصباح يميل الناس يساراً إلى البحر في منحدر صعب مشرف على البحر ، فينزلون إلى رمل أبيض يظهر من بعيد كأنه الثلج ، فيخرجون الماء منه بعد حفره .

التاسع : الشمام . بينه وبين الذي قبله ليلتان .

العاشر : المدار . بينه وبين الذي قبله مرحلتان ومنه نترك البحر الملح يسرة ونأخذ يميناً [2] .

الحادي عشر: وادي عفونة. بينه وبين الذي قبله مرحلتان- الأولى منها العقبة الصغيرة .وهو بعد وادي الرهبان . بينه وبين النيل مرحلة . يحفر فيه ويخرج منه ماء عذب بقال إنه من رشوحات النيل . ومنه ينتهي بنا الرحيل إلى النيل .

. . . .

ذكر خروجنا من القاهرة متوجهين إلى بلاد المغرب

---

[2] . هنا عبارة زائدة هي: (الأولى منها العقبة الصغرى) وموقعها الفقرة التالية.

الحاجية

(حرسها الله)

وفي أواخر جمادي الثاني خرج الركب ... ثم ارتحلنا منه ، وهنالك فارقنا من له رجوع إلى مصر ، ونزلنا بعده عفونة ، ثم قطعنا أرض برقة رحلةً بعد رحلة . وقد لقيت بها رجلاً مسناً وذكر لي أنه حج معنا ، وأنه يحب لقائي ولم يقدّر له حتى وجدني يوماً منفرداً- ونحن سائرون وليس قربنا أحد .فسلم على وعرفني بنفسه وأخبرني بهذا الأمر . وقالي لي:"أردت عقد الأخوة في الله تعالى معك " فقلت :"يا سيدي ! على بركة الله ،وإن كنت لست أهلاً لذلك.إذ من فضل الله علي ملاقاة أمثالكم". وذكر لي أن طريقته قادرية ،عن أبيه،عن أسلافه .وقد كان أبوه من كبار الصالحين،ومنزلهم بأرض النقازة- قرب طرابلس-وأهلهم بها إلى الآن .

وهذا الرجل الذي لقيته هو الشيخ إبراهيم بن أحمد بن جحا[1] المخزومي المالكي القادري.وكان أبوه-سيدي أحمد-منقطعاً عن أهله في منزله على طريق الحاج فإذا مرت به الركاب أطعمهم عصيدة الدقيق حتى يشبعهم جميعاً.يفعل ذلك معهم في الذهاب والإياب . ولما مات خلفه في ذلك ولده هذا- الشيخ إبراهيم - فهو يفعل ذلك دائماً،إلا إنْ كان غائباً عن البلاد،كهذه السنة؛فإنا لما مررنا ببلادهم مشرّقين وجدناه غائباً في الحرمين الشريفين-ذهب في السنة التي قبلنا وجاور.ولما رجعنا جاء معنا ، فمال إلى أهله وقبيلته للسلام عليهم ، ولم يتيسر له ذلك . وإنما اختاروا العصيدة - والله أعلم- لأن الركب يمر بغتة وليس الوقت الذي يمر بذلك المكان وقت نزول فيكون الدقيق عندهم موجوداً ، حتى إذا رأوا على بعد آثار الركب طبخوه بالماء ووضعوا فيه السمن . وذلك أسهل ما يمكن تيسيره من الطعام المطبوخ . فإذا وصل أول الركب كانت راحتهم عنده ، فإذا جاء آخره كانت راحتهم أيضاً عنده وذهب أوله . فإذا أكلوا جميعاً ذهبوا

---

(1) راجع ما ورد عنه في الرحلة الناصرية.

الحاجية

وقد رأيت من الشيخ إبراهيم محبة كبيرة في جانبي ، جزاه الله عني خيراً . ومنذ انعقدت بيني وبينه الأخوة ما لقيني إلا هش لي وبش ، وأكثر من طلب الدعاء مني ، وأنا كذلك . وربما تذاكر معي في الخير وخصوصاً في الطريقة القادرية ، نفعنا الله بها جميعاً وبمحبة هذا الشيخ المسن البركة ... آمين .

ثم لم نزل في الحل والترحال ، واللطف يصحبنا في كل حال ، حتى نزلنا مصراتة عند الضحى ، وتنعمنا بزيارة شيخ الطريقة ، وعمدة أهل الشريعة والحقيقة ، البحر الذي من شرب منه يصفو مشروبه ويروى ، أبي العباس سيد أحمد زروق- رضي الله عنه ونفعنا ببركاته...آميـن . وبتنا عند زاويته (إلى) الصباح .

ثم ارتحلنا منه ، واتصل مشينا في العمارات المرحلة بعد المرحلة حتى وصلنا إلى طرابلس وتلقانا الناس من طرابلس قبل الدخول بليلتين . وكانوا من الركب المشرّق واستبطأونا ، واستفدنا منهم خبر الأهل على الإجمال ، وخبر الغرب والمدينة على الإجمال .

دخولنا إلى طرابلس

متوجهين إلي الغرب في حفظ الله

وفي ضحوة اليوم الثاني من رمضان سنة تسع وخمسين ومائة وألف، دخلنا مدينة طرابلس من برقة متوجهين إلى الغرب،والركب المشرّق نـازل بها إذ ذاك منذ أيام ، ونزلنـا بـدار بالزرارية من الجهـة الموالية للبحـر، وسلمنا على أهل الركـب الذيـن هنالك وعلى معارفنا من أهـل تلك البـلاد ، وقد ورد علينا من فاس المحروسة من عند الأحباب والأخوان والأصحاب كتبٌ كثيرة جداً ، تعرفنا منها الأخبار، وعرفنا منها ودّ الأحرار وعهد الأخيار .

ثم تفرغنا بعدها للقاء الأحباب من سكان البلد ، كسيدي عمر السوداني وإخوته وسيدي على الصنهاجي- وقد تقدم الكلام عليهم ، واجتمعت برجل من البلد اسمه عبدالله ونسيت لقبه ، خيّر متديّن هين ليّن عفيف صيّن ، فجعل يتردّد إلي ويعول في المهمات الدينيّة عليّ ، وأخذ عني (حزب الفلاح) وما يتبعه من الذكر المنسوي للشيخ عبد القادر و(الصلاة المشيشية) . كتبت له جميع ذلك بخطي وقرأته عليه وهو يسمع ، وأخذ منه حال عظيم بقي عليه أثره حتى فارقناه على ذلك عاقدين معه الأخوّة في الله تعالى لا غير .

وقد سألته يوماً عن مــزارات البلــد فقال لي : " إن شئــت ذهبت معك إليها " فقلت :"نعم" فذهب معي يوماً إلى مزارات خارج البلد ، ويوماً أخر إلى مزارات داخل البلد . ولنذكر من عقلت عليه من أربابها :

فمنهم : سيدي سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذي بأقصى المدينة من أكابر الصالحين .

وسيدي عبد الوهاب .له مزارة بالمدينة ، ولكن لا يعرف بأكثر من هذا الاسم .

ومنهم: درغوت باشا الذي افتك البلد من يد النصارى حين استولوا عليها الاستيلاء الأخير يوم ستة عشر من محرم سنة ستة عشر وتسعمائة. فانتدب لذلك درغوت أمير جربة ومراد باشا أمير مسلاتة ، ووقع الافتكاك عام ثمانية وخمسين وتسعمائة وبقي بها درغوت محمود السيرة إلى أن توفي بها . وقبره الآن يزار وعليه بناء عظيم .

ومنهم سيدي محمد بن أحمد بن مساهل-رضي الله عنه.كان له مشاركة في العلوم وحسن اطلاع على فروع المذهب . طالت ولايته للفتوى نحو الأربعين سنة . وحمدت سيرته فيها . ثم استعفي فأعفي ، وبقي ملازماً لداره ومسجده للتدريس فيه . مستريحاً من التكاليف . مشتغلا بمطالعة

للتصانيف .ولا يقطع القراءة في الغالب صباحاً ومساءاً، صيفاً وشتاءاً ، يقرأ ما تيسر من فقه ونحو وما يشاكل ذلك ، ويختم بشئ من كتب الوعظ والتذكير . وله ميل قوي إلى طريق القوم . وقد أخذ الطريق عن ولي الله بلا نزاع ، بين أهل تلك البقاع ، سيـــدي محمد الصيد- رضي الله عنه . و(الصيد) في لغـــة أهـــل هذا القطر هو الأسد. وسمي بذلك لكثرة ردعه للظلاّم وقهره للجبابرة حتى كان لا يجترئ أحد على معارضته في ما أمر به ، ولا يتعرض لمن انتسب إليه . وظهرت له كرامات . أخذ الطريق عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة ، وهو أخذ عن الولي الكبير العلم الشهير سيدي أبي عمرو القسطلي المراكشي- رضي الله عنه . ولأجل هذه النسبة لم يزل سيدي عبدالحفيظ بن الشيخ سيدي محمد الصيد يبالغ في تعظيم أولاد سيدي أبي عمرو ، بل في تعظيم كل من يمت إليهم بقرابة أو خدمة أو جوار أو غير ذلك . وأن اتفق قدوم واحد منهم عليه فلا يبقي ولا يذر في إكرامه والمثول بين يديه كأصغر الخدام .

قال شيخ شيوخنا أبو سالم في (رحلته) :

" ولقد حج معنا سنة ستين سيدي محمد بن أبي القاسم ، من أولاد سيدي عمرو ، وتلقاه سيدي عبد الحفيظ بالبر والتعظيم وأنزله عنده وبالغ في إكرامه حتى شيعه في الذهاب والإياب نحواً من سبع مراحل . ولقد أخبرني من حضره ذات يوم وقد غسل سيدي محمد بن أبي القاسم يده صباحاً ورأسه من حناء في إناء فأخذ سيدي عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة في ذلك الإناء وشربه . نفعه الله بحسن اعتقاده . ولهذا السيد اعتقاد حسن في كل من ينتسب إلى الصلاح . وقد نفعه الله بذلك فطار صيته وانتشر ذكره في البلد أكثر من أبيه ، وهابه الولاة فمن دونهم . وتوفي الولي سيدي محمد الصيد سنة خمسين وألف " .

قلت : وقـــد زرتهما معا في تربتهما بالقرية المسماة بالهنشير ، على

أميال من البلد شرقيها . ولم أقف على وفاة سيدي عبد الحفيظ .

الحاجية

وممن وقفت على ضريحه بالعمروص- قرية خارج المدينة ، شرقيها، يعمر بها يوم الجمعة سوق عظيم يحضره أهل تلك النواحي- الشيخ العارف بالله تعالى سيدي محمد بن سعيد- نفعنا الله ببركاته وولى علينا سحب رحماته . المتوفي سنة إحدى وعشرين ومائة وألف . أخـذ الطريق عن الشيخ الهبري النفاتي - رحمه الله- فمهر وبهر ، وبالتأييد من مولاه ظهر . وكان أميّاً فإذا تكلم في العلم سحر ، وأسكت وقهر . وله أحوال ومقامات ، وكشوفات وإلهامات ، ومآثر وكرامات ، وخوارق وعادات ، وإرشاد وإفادات ، وتلقين وأوراد للمنتسبين وأهل الإرادات . وقد انتفع به ناس وكان منهم الصالحون والسادات . وقد أخذت طريقه- على سبيل الرواية والتبرك- عن شيخنا أبي عبدالله سيدي محمد زرزير، المكناسي داراً ومزاراً ، المتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة وألف ، عن سيدي محمد بن سعيد . وله رسائل عجيبة ، حضرني منها الآن رسالة نصها ، بعد البسملة والصلاة :

" من عبدالله الراجي عفو ربه محمد بن سعيد،إلى محبنا في الله تعالى محمد ابن علي الفلاني .السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد :

فأعرفكم- عرفكم الله خيراً- بأنكم طلبتم منا أن نبين لكم كيفية النفس وكيفية ضبطها في الأحوال ، فأقول- وبالله التوفيق ، وبه التبصرة والتحقيق ، ولا حول ولا قوة إلا (بالله) .. في سابقة السوابق . لأن العبد صورة ومعناها الحق ، (وَما تَشَاؤونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهَ ، هُوَ أهلُ التَّقْوىً وَأَهْلُ الْمَغْفرَةْ) :

اعلم أن السائغ عند المحققين أنها تتلون في تقلبات العبد كتقلب الدودة وكتقلب الحية على لون ترابها . قال الله تعالى:(وَأُخْرَىَ لَمْ تَقْدِروا عَلَيْهَا قَدَ أَحَاطَ اللهُ بِهَا) وإذا أردت أن تحيط بها فقط أملها بالموت ، فإنها تنحصر به وتخرج من وجهتك التي بينك وبين ربك . وأما إذا أردت محاربتها فإنك لا تقدر عليها لأنها تتطور في كل معنى ظلمانياً كان أو نورانياً . وأما ترياقها الذي يغنيها من دعوة الدارين فذلك أن تلقيها من

ظاهرك وباطنك . أما ظاهرك فبالإتباع ، وأما باطنك فبأن تلقي قدرتك في بحر قدرته وارادتك في بحر إرادته وحياتك في حياته ، وهكذا حتى تبلغ إلى مشاهدة أخرى فتطلع على سر الذات فتفنى ذاتك .

قال الله تعالى :(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً).وقال :(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّا وَخَرَّ موسَى صَعِقاً) أي تجلى للجبل بعظمته وإحاطته فصار دكا، اختيارك باختياره وتدبيرك بتدبيره .(وَخَرَّ مُوسَىَ صَعِقاً) أي ميتاً من دعواتها ، ناسياً لاختياره.وهكذا تحفك العناية وتغيب عنك الجناية ، فتدخل بساط الحق بالحق ، وتأخذ الحق بالحق ، وتعيد الحق بالحق ، وترى الحق بالحق- كما قال : (لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه . فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) .

وأما ضابطها المعلوم عن الصوفية في التضييق عليها فلا نتكلم عليه؛ إذ لا فائدة لك فيه ، لأمرين :

الأول بطء الفتح عليك وإثبات مخلوق مع الله ، وهو عندهم شرك . قال الشيخ الجزولي لأصحابه : (إياكم والاشتغال بمخالفة النفوس وتصفية القلـــوب ، وعليكـــم بمعرفـــة علام الغيوب) . والمشغول بنفسه لا يرى ربه ، لأنه في صفاته يشاهد (نفسه) ، ومن يشاهد نفسه لا يشاهد ربه ، إذ الضدان لا يجتمعان وما يستوي الظلمات والنور .

والثاني : أنك جاوزت مقام الإرادة إلى مقام المعرفة بالله (بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الأيمَانِ) .

سيئات المقربين حسنات الأبرار.والغارق في بحار الوصلة منقطع عن كل شيء،كما قال الشيخ ابن عباد في(شرح الحكم) عند قوله:من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل .العارفون غرقى في بحر التوحيد،استوي خوفهم ورجاؤهم،كل شغلهم بالله.لا يعرفون نفساً ولا شيطاناً . اكتفوا بالله عن كل ودود وحسود فما شاهدوا شيئاً إلا وقد

سبق لهم أولية الحق فيه. فلا يثبت لهم في معرفتهم مشهد حقيقي لغيره. فاستراحوا من العلاج ، وطرحوا أنفسهم للأمواج . فدخلوا جنات التسليم وضرب عليهم سرادقات العز بالله بينهم وبين الغيرية . فلا يصل إليهم مكر ماكر ، ولا يقهرهم قهر قاهر . يقول الحق في حقهم : (مَنْ آذَى لي وَلِيّاً فَقَدْ بَارزَنِي بِالْمحَارَبَةِ) والعارف يبلغ إلى معني في الحق لم يكن فيه رجاء ولا خوف .

وقد كنت صباح الليلة التي كتبت فيها الورقة طلبت الله في الأذن فيها. فكنت في معراج لا نعرفه من عبد ولا رأيته في نص . وإذا بالكون كله قد سجد وأنحط تحت أسفلي كما ينحط الطير من الهواء إلى الأرض سجوداً لله ، وأنا روحي لم تسجد معه . فقلت : (يسجد لله ما في السموات وما في الأرض طوعاً وكرهاً) ، وأبت روحي من السجود . وأخذت أتفكر في ذلك حتى تذكرت أن العارف يتجاوز مقام الطوع والكره، لأنهما من الرجاء والخوف . والراجي والخائف لا يدخل حضرة الله التي هي من مقام الحيرة ومقام المعرفة ، ولا يكون له خوف ولا رجاء . إذ لا يخاف إلا من كانت له سيئات ، ولا يرجو إلا من كانت له حسنات . العبودية كانت مقصده ، والعجز عن القيام بحق الربوبية أنسته عن الحسنات (نعم العبد صهيب ، لو لم يخفِ الله لم يعصه) .

ثم يزيد بعد هذا الكلام زيادة لم تكن أولاً :

"حكى عن الحارث المحاسبي-رضي الله عنه- أنه ورد على نيسابور فوجد أصحاب أبي عثمان النيسابوري بعد وفاته فقال لهم: بأي شيء كان يأمركم أبو عثمان ؟

فقالوا له:كان يأمرنا بكثرة العمل ورؤية التقصير فيه. فقال لهم: لقد كان يأمركم بالمجوسية المحضة".فتراجعت الأئمة في هذه الكلمة،كل واحد منهم يقول بقدر فتحه فيها . فوصل القول إلى القشيري فقال فيه قولاً جديداً بأن الحارث المحاسبي-رضي الله عنه-ما أراد في أوطان الأعمال تعريجاً بل إنما أراد أن يخرجهم عن الإعجاب بالأعمال ، وقال لهم : لو

أمركم بكثرة الأعمال والغيبة عنها فيكون حينئذ عملكم بالله لا لله . لعمل لله فيه إعجاب والعمل بالله لا إعجاب فيه . (إياك نعبد وإياك نستعين) . (إياك نعبد) أخرج من الشرك الجلي وأبقى في الشرك الخفي ، والشرك الخفي أعظم من الشرك الجلي ؛ لأن الشرك الجلي بقول (لا إله إلا الله) ينفي حروفه لأنها تنفي حروف الكفر وبقيت معانيها في القلب ، لا تفنى تلك المعاني إلا بفناء النفس لأنها من جملة الأفراد الغيرية التي نفاها الشرع العزيز ، لأن شرك الأحوال كثرة الأفعال . ورد في الحديث :

(لكل عملٍ حقيقة وحقيقة الأعمال الإخلاص (و) التبري من الحول والقوة) .

انظر المصطفى- صلى الله عليه وسلم- كيف أخرج الشرك الجلي والخفي من الأفعال والأحوال . أعطى- عليه الصلاة والسلام- قسطاً من الكمال لكمال دينه ووفور عبوديته ما أعطته الربوبية من كمالها ، فظهر لنا بجميع الكمالات وأمرنا بها ونهي عن جميع النقائص ، (كتاب ضبط الأنفاس في ما أسس العارفون في التقوى والإخلاص) .

كذا وجدت بخط بعض الأخيار ممن عاصروه ، وأظنه اجتمع به ، وفيه تصحيف في مواضع.فمن وقع بيده أصل صحيح فليصلح وأجره على الله.

ووقفت أيضاً على رسالة أخرى له ، نصها :

"بعد الحمد والصلاة.من عبد الله الراجي عفو الله،محمد بن سعيد، إلى الفتى التائق،المعول على الحب العاشق-أسفر الله له عن الكمالات، وألحقه أعلى الدرجات.بين الله له المعالم،وأحسن له المكارم.خرق الله له الحجاب وأسمعه لذيذ الخطاب،وألهمه الصواب،وصار من الأحباب ، الذين غابوا عن الدنيا وعن شأنها وتركوا أهلها خلف ظهورهم .واستغبطوا مناسك الله من أوليائه،وهاجروا عند أحبائه . ضرب الله له سهماً معهم ،

وسقاه من طيب شرابهم ، إنه على ما يشاء قدير. وصلى الله على سيدنا محمد النذير البشير . سيدنا فلان .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ونعلمك يا أخانا (أنك)منذ سنين وأنت تستعد للحج ولا تساعدك الأحوال والأزل حاكم ، ولو ساعدتك القدرة لأتيت . واصبر على قضائه ، واشكر على نعمائه وأنت في الخير ولو(   )[1]إلى الخير ، لأنك الخير. وعسى ربنا أن يفتح لك باب الخير فتساعدك الأحوال وتسوقك القدرة إلى ما سبق في الأزل ، فتدرك كل ما فاتك في زمن قليل ، كما قال تعالى : (ليلة القدر خير من ألف شهر)،(واصبر وما صبـــرك إلا بالله) ، (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا)،(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا)،(يجزون الغرفة بما صبروا)وتواصوا بالحق و(تواصوا بالصبر)،(وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وآخر أسماء الله الحسنى (الصبور) . تخلق به تخرق جميع الخوارق ، وتجمع لك جميع الحقائق ، لأن الحق كله في الصبر " والسلام .

رجع :

وممن وقف أيضاً على ضريحه الشيخ العالم العارف الزاهد الناسك الورع الصوفي ، أبو العباس سيدي أحمد بن جابر- رحمه الله . وكان معاصراً لسيدي محمد بن سعيد إلا أنه تأخر عنه . وكان متقشفاً منقبضاً، عكس سيدي محمد بن سعيد . ولم أقف على شيخه ولا أذكر الآن وفاته. وقد اجتمعت بجماعة من الأخيار الذين اجتمعوا بهما .

---

[1] كلمة مطموسة.

ووقفت أيضا على ضريح المراغني ، ولم يظهر إلا بعد موت ابن جابر . ولكل هؤلاء المذكورين ذرية موجودة . أعني من ابن مساهل إلى المراغني. ووقفت أيضاً على ضريح سيدي عبدالله الشعاب ، على البحر وعلى (ضريح) سيدي المصري ، جنوبي البلدِ ، وغيرهما . وعلى قبور الشهداء والمجاهدين .جعل الله تعالى ذلك نافعاً في الدين والدنيا والآخرة، بمنّه وكرمه .. آمين .. أمين !

ذكر الخروج من طرابلس والسفر

منها إلى المغرب حرسه الله

وفي العشر الأواخر من رمضان في الثالث أو الرابع منها[1] خرجنا من طرابلس- حرسها الله- عند الزوال ونزلنا قريباً منها . ومن الغد ارتحلنا آخذين في بلاد الجريد . . . . . .

* * *

---

(1) من الإقامة في طرابلس ؟

3

مِنَ الرحّلةِ الفاسيّة

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

مِنَ الرِحلَةِ الفَاسِيَةِ
لأبي العَبْاس أحمَد بْن محَمد الفاسيَ
(قام بها عام 1211 - 12 هـ)

. . . . . وبتنا ذلك اليوم بسيدي سلام بو غرارة ، وزرناه . وعليه نخيل وماء عذب . وقدم علينا هنالك المرابط سيدي موسى الناصرى . وقدم من الشرق وسألناه عن ولد العم سيدي عبدالقادر- لكونه عشيره- فأخبرنا أنه غرب بحراً قبله .

ومن الغد (مررنا بوادي ز ز (؟) بعد أن زرنا رجال العرام وسط النهار ، وهم عدة من الصالحين من الحمارنة عليهم قبب . ذكر في (الرحلة المنالية) ما نصه : " وخامسها مزارات كثيرة متقاربة في أرض كثيرة النخل تسمي عرام ، ويقال للمزارات سادات عرام . وهي قباب كثيرة جداً " . وفي (الرحلة العياشية) : " عرام قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادات الحمارنة ، إذ بها مقابر أسلافهم : سيدي يحيى وغيره من أكابرهم . وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة ، إلا سيدي عبدالله بن عبد العزيز المتقدم فإنه دفن بجانب زاويته بزرير " . وقال قبل : "وزرير(زرين ؟) بليدة فيها زاوية سيدي عبدالله بن عبد العزيز بن يحي بن عبد الرحمن بن

جابر ، أحد السادات الحمارنة ومن أفاضلهم ، توفى في غالب ظني قبل السبعين " يعني : وألف . هـ

ومن الغد- وهو يوم الأحد الواحد والعشرون من شعبان- بتنا بوادي السمارة بعد أن زرنا في ذلك اليوم سيدي مخلوف البهلول وعليه قبة مبنية، وعليه نخيل ومياه .

ومن الغد- وهو يوم الاثنين- مررنا بالنبش ، وسقى الحجاج منه ، من بئر ماؤها عذب ، وبتنا بعد ذلك .

ومن الغد- وهو يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من شعبان- بتنا بالسياح من ابن قردان[1] ، على ساحل البحر. وهناك قبب ثلاث في إحداها قبور ثلاثة ، على كل واحد دربز من خشب مكتوب بأحد الدرابز الذي هو بالصف الأول عن يمين المحراب : " هذا ضريح المكرم الأجل سيدي أحمد البكي (المكني؟) نفع الله به " . وبالقبتين الباقيتين عدة مقابر من غير دربز .

ومن الغد ارتحلنا مشرفين على برج الملحة (الملح ؟) مقابلين له . ومن هناك تقدم من تقدم من الحجاج لمحروسة طرابلس لقضاء مؤونة الركب رحلوا من الركب قبل نصف الليل بساعة .

ومن الغد بتنا بسيدي سعيد بن صالح . دخلنا لقبته على شاطئ البحر في علو ، وعليه دربز وأغطية ، ومكتوب بغطاء الدربز : " هذا ضريح سيدي ابن صالح " . وبات الركب على غير ماء .

ومن الغد- وهو يوم الجمعة السادس والعشرون من شعبان- مررنا ضحى على قبة فسألنا المرابطين أولاد بومريم من أهل تلك الأرض عن صاحبها فأخبرونا بأنه من الخوامس أيضاً والحجاج يعظمونه ويقومون به. وبتنا بالزوارة العامرة بعد أن سقى الركب الماء من الزوارة الخالية.

---

[1] الأصل :" ابن كرمان " .

ومن الغد سقى الركب الماء من المليتة، وبتنا بطرف نخيل يو عجيلة. ومن الغد بتنا بالحلقية: المعروفة بالزاوية الغربية . ومن الغد- وهو يوم الاثنين التاسع والعشرون من شعبان- رحلنا قبل طلوع الفجر.وجد الركب في السير ، ووصلنا طرابلس قبل العصر ، ووجدناه عندهم يوم الثلاثين ، وأصبحنا صائمين يوم الثلاثاء .

ذكر نزولنا بمحروسة طرابلس

وفي هذه الأيام الثلاثة السالفة جعل الباشا يوسف ، متولي حكم طرابلس ونواحيها ، يبعث خدامه وأصحابه كل يوم بمؤونة للركب . ولما قاربنا البلد بعث الباشا يوسف بن علي بن أحمد ، باني المسجد القريب من باب المدينة الذي هو في غاية الإتقان بحيث لم يُر مثله ، ولده لملاقاة الركب في نحو خمسمائة من الخيل والرماة وجعلوا يلعبون بالبارود حتى دخلنا بمهرجان عظيم . فلما وصلنا لأقواس الزرارية جعلت المدافع تخرج من أبراج البلد .

ونزل الركب بالزرارية- وهي بلدة مقابلة لمحروسة طرابلس خارجة عن سورها وهي مضافة لها ، ينزل بها الحاج ولا ينزل بمتاعه بطرابلس للوظيف المخزني الذي على ذلك ، بل ينزل الركب بالزرارية بمتاعه . يكتري الحجاج بها الدور ، ويجعلون بها أمتعتهم ودوابهم ، وتخرج الإبل لمحل رعيها فلا ترجع إلا عند إرادة السفر . والحجاج يدخلون طرابلس لقضاء أغراضهم ، ويبيتون بالزرارية مع أمتعتهم . والزرازية الآن في غاية الخراب ، لم يبق بها إلا قليل من الدور .

وطرابلس لها بابان:باب للبر وباب للبحر،لأن البحر محيط بها من كثير من جهاتها.وبها موضع متصل بالمدينة من جهة البر ، وهو مستقر الأمير الذي يكون بها، يقال له الحصار.وأميرها الآن الباشا يوسف المذكور- في غاية الضبط والإتقان،مشتغل بنكاية العدو الكافر،وقد سلطه الله على أعدائه

الظلمة . وله مراكب بالبحر قلما سفر مركب منها ويرجع بغير غنيمة . وهو رجل صغير السن كبير العقل مجتنب للفواحش متقن لأحكامه مشتغل بالجهاد مباين لأهل الفساد .

وهذه المدينة في نفسها كما وصفها أبو سالم [1] في رحلته بقوله :

" مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ومعايبها قليلة . أنيقة البناء فسيحة الفناء . عالية الأسوار متناسبة الأدوار . واسعة طرقها سهل طروقها . إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف وجميل الإنصاف وسماحة على المعتاد زائدة وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة . لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغواً إلا سلاماً ولو لمن استحق ملاماً ، سيما مع الحجاج الواردين ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون في إكرامهم ولا يألون جهداً في أفضالهم عليهم وإنعامهم " .

ولقيت هناك رجلاً مسناً راكباً على حمار يتوسم فيه الخير والصلاح وينوه به أهل بلده، سمي لنا:عبد الحميد الكردوني. فدعاني من غير معرفة ورحب بي غاية وهش وبش ، وطلبنا منه الدعاء الصالح فدعا لنا، وطلب منا الدعاء فدعونا له بعد أن سألنا عن نسبتنا . نرجو من الله القبول .

وزرنا سيدي عبدالوهاب بمحروسة طرابلس بباب البحر . له ضريح هنالك بطرف مسجد صغير ، ويسمى مولى البحر . له مزارة مشهورة .

وكانت طرابلس- فيما مضى- بها مزارات كثيرة لكثير من أكابر الصالحين . وسبب خفاء مزاراتها الآن- كما قال أبو سالم والله أعلم- أن البلد قد تداولته أيدي المسلمين والنصارى مراراً عديدة .

فقد ذكر ابن بطوطة في(رحلته)أن"النصارى استولوا عليها في أيام السلطان أبي عنان وافتداها منهم بخمسة قناطير من الذهب العين، فعد

---

[1] العياشي.

ذلك من مآثره ". (انتهي كلام ابن بطوطة). قال أبو سالم : " وقد استولى عليها النصارى أيضاً في القرن العاشر ".(انتهي) .

وصلينا الجمعة بمسجد الباشا المذكور . وهو له بلاطات خمسة في غاية الإتقان ، وبدائرته من جهة صدره وما والاه أسوار مزلجة بالزليج الرومي ، وكذلك حيطانه . وبلاطاته بالسواري من الرخام . وهو مفروش بالتساريح الاسطنبولية وله منبر من الرخام الملون بالأبيض والأسود والأصفر في غاية لم ير مثله .

فلما دخلنا المسجد جلسنا بباب المحراب ، وأتى الإمام وخطب خطبة جيدة تضمنت ذكر فضائل رمضان والحض على صومه وصيانته من الفحشاء والمنكر ولم يتكئ على عصا ، ولم يذكر في خطبته " من يطع الله ورسوله " الخ. وإمام المسجد هو الشيخ محمود بن باكر (باكير؟) أفندي . ولقينا هنالك الشيخ محمد الصقلاني وحضرت مجلسه لقراءة التفسير بالمسجد المذكور بعد صلاة العصر ، فجعل يقرئ قراءة حسنة في سورة (والنجم) ، ينقل النقول المشهورة ، إلا أنه يلحن بلسانه غاية اللحن ، فكأنه لا يعرف علم النحو أصلاً والله تعالى أعلم .

وكان ارتحالنا من محروسة طرابلس يوم الثلاثاء ثامن رمضان المذكور بعد مضي ثلاث ساعات من الزوال من اليوم المذكور ، بعد أن سفر مولانا المنصور بالله وأخوه- حفظهما الله- عند الصباح من اليوم المذكور ، صحبة الإبل وأثقال الركب . وبتنا بتاجورة على مسيرة ثلاث ساعات .

ومن الغد رحلنا من تاجورة وصلينا الظهر بسيدي أبي النور والعصر بوادي المسيد على مسيرة خمس ساعات . وبتنا هنالك .

ومن الغد بتنا بسيدي عبد العاطي على مسيرة خمس ساعات وثلث .
ومن الغد-وهو يوم الجمعة الحادي عشر من رمضان- بتنا بساحل حامد، على مسيرة ست ساعات.وزرنا في هذا اليوم سيدي مفتاح دفين بلاد سيلين، ابن الولي سيدي أبي فارس دفين قرب ساحل حامد .ويجاور سيدي

الحاجية

مفتاح هذا الولي الشريف سيدي مع الله[1] وسيدي مفتاح هذا حفيد الشيخ الكبير الشهير سيدي عبدالسلام بن سليم الحازمي الفيتوري ، دفين زليتن ، تلميذ سيدي أحمد بن عروس ، دفين تونس . ومن أحفاده أيضا : الولي سيدي عبد العاطي المذكور أمس تاريخه ، دفين المعوج قرب السواني الكثيرة ، ابن الولي سيدي أحمد دفين تونس، ابن الولي سيدي أبي فارس المذكور . أخبرنا بهذا كله رجل لقيناه ببلاد سيلين عليه أثر الخير، سمى لنا نفسه سيدي أبي بكر المعروف ببراح الصالحين ، ابن سيدي عبد السلام دفين الساحل ، ابن محمد ابن عبدالسلام بن محمد بن عبد السلام الأسمر . ودعا لنا ودعونا له بما نرجو من الله قبوله .

وزرنا في هذا اليوم سيدي بوعصيدة ، وولده وغير ذلك من الصالحين بقبب على ساحل البحر . ومررنا هناك بأثر مدينة كانت مبنية بالحجر المنحوت عليها أثر الضخامة ومررنا هنالك أيضا على أثر مدينة متهدمة كانت من الرخام عليها أثر الضخامة ، وما بقي مبنيا بها في غاية الإتقان ، وهي في غاية الكبر ...

ومن الغد زرنا صباحا سيدي أحمد بوراس العجمي ، وزرنا بعد ذلك سيدي سلام ، وهو سيدي عبدالسلام الأسمر (كذا) وبتنا بالدفينة على مسيرة ست ساعات .

ووردت علينا بعد نصف الليل من اليوم المذكور امرأة تعرف بالدرويشة عافية يتوسم فيها الخير . والحجاج يقصدون زيارتها لما يعلمون من حالها ، وتخبر بمغيبات وتصدق في ذلك . فزرناها وباتت عندنا .

ومن الغد-وهو يوم الأحد الثالث عشر من رمضان-وصلنا مصراتة، مدفن الشيخ الشهير، شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة، سيدي أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي الدار ، الشهير بزروق - رضي الله عنه- على مسيرة ست ساعات ودخلت مدشرا (؟) قبل مدشر مدفنه فصليت الظهر هناك بمسجد

---

[1] كذا- ولعلها (صنع الله).

الخطبـــة . وزرت الشيخ سيدي ابن عامـــر بطـــرف المسجـــد ، ولقيت أولاده فأوقفوني على شرح الشيخ زروق على (رسالة ابن أبي زيد) بخط مؤلفه الشيخ زروق المذكور في سفر رباعي صغير . فقبلناه ومسحنا به سائر جسدنا بقصد التبرك ، فالله يعاملنا على قصدنا . وأوقفوني- بارك الله فيهم- على دينار ودرهم شرعيين ، وهما من ضرب هشام بن عبدالملك بن مروان- أو من ضرب السكة في الإسلام . ثبت ذلك عندهم بالتواتر ، ومعلوم ذلك عندهم . ومكتوب بخط كوفي في وســـط الدينار ، في ثلاثة أسطر " لا إله إلا لله .. وحده لا شريك له " وبالدائرة : " محمد رســـول الله . أرسله بالهـــدى وديـــن الحـــق ليظهره على الدين كله " . وبوسط الجهة الأخرى ، في ثلاثة أسطر أيضاً : " الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد " وبالـــدائرة : " بسم الله . ضرب هذا الدينار ستة ست ومائة " . ومكتوب بخط كوفي في الدرهم من إحدى الجهتين ثلاثة أسطر ومن الأخرى أربعة أسطر . فمكتوب بوسط إحدى الجهتين :"الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد " . وبالدائرة : " محمد رسول الله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ". وبوسط الجهة الأخرى : " لا آله إلا الله . وحده لا شريك له " وبالـــدائرة : " بسم الله . ضرب هذا الدرهم بواسط سنة ثلاث عشر ومائة " . فتبركنا بهما ورددناهما لهم . وصلينا العصر هنالك بالمسجد بالمذكور أول الوقت وبتنا بالركب .

ومن الغد أصبحنا مقيمين، فتوجهنا لزيارة الشيخ زروق- نفعنا الله ببركاته ...آمين ، عند صلاة الصبح فزرناه وتبركنا بأثره . نرجو من الله القبول . وزرنا قبراً بلصق قبر الشيخ المذكور يعرف بسيدي منصور . وسألنا عنه بعض من حضر بضريحه فأجابنا بأنه كان يخدمه وتزوج بعده زوجته المصراتية،لأنه توفي-رضي الله عنه- عن زوجتين إحداهما فاسية،والأخرى مصراتية ، واسمها أمة الجليل ابنة أحمد المكرم الغلباني المصراتي ، حسبما ذلك بزمام تركته نقله بحروفه الشيخ أبو سالم .

رجع :

وفي صبيحة الغد عدنا لزيارة الشيخ زروق في جملة الركب لتأخره عن زيارته إلى وقت السفر . وسفرنا ، وزرنا ضحوة اليوم سيدي بو شعيفة ومزارته هناك مشهورة . وهو أقدم من الشيخ زروق على ما حكى لنا أهل تلك البلاد . وجد الناس في المسير ، عازمين على السير ليلاً بعد أن اجتمع الركب كله ، وكل واحد نادى صاحبه وأيقظه من سنة نومه إلى أن وصلوا إلي الصقيعة في نصف الليل على مسيرة تسع ساعات . وأناخ الركب هنالك ولم يضرب أحد خباء ولا قبة بل أوقدوا النار فقط لطبخ العشاء والخبز .

لطيفة وفائدة : قال في (الإحياء) ما نصه :"والسنة أن لا ينزل أحد حتى يحمي النهار ، ويكون أكثر سفره في الليل . قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لاتطوي بالنهار . وليقلل نومه بالليل حتى يكون عونا على السفر " . انتهى .

وضُرِبَ الطبل عند طلوع الفجر،وحمل الركب، وسفرنا بالسلامة. وبتنا بطرف الهيشة على مسيرة تسع ساعات أيضاً بعد نصف الليل بساعة ، على غير ماء . وشربت البغال من الماء المحمول على ظهور الإبل .

" والهيشة سبخة مستطيلة وعلى جوانبها بناء قصور خالية ، وفيها نخيل متفرق كأنه رؤوس الشياطين لا ترى العين أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه سيما المعاود ، لما يستشعر بعده من المفاوز والمهامه والمعاطش التي يحار فيها الدليل . كما لا آنس منه ولا أبهى منه في نظر الآيب لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة . ونخيلها آخر نخل يراه الذاهب وأول نخل يراه الآيب. وماؤها ملح أجاج لا يكاد يساغ ، يضرب به المثل في القبح . وليس في مياه برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة لا يعتمدها الحاج - مع أن هذا أيضاً لا يستقي منه إلا من اضطره العطش أو كانت أيام الحر . وهو ماء راكد في مواضع

كثيرة يحيط به القصب ، وبعضه أشد قبحاً من بعض . وبآخر الهيشة وادٍ من الملح يجري الماء على أرض من الملح ، فلا الماء يجمد ملحاً ولاً الملح يذوب ماء- وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة الملح ."قاله أبو سالم .

ومن الغد- سقى الناس الماء من بئر( )[1] وبتنا بعدها على مسيرة ست ساعات ونزلنا بعد العشاء .

ومن الغد- وهو يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان- سقينا الماء من معطن الزعفــرانة . وبتنا هناك على مسيرة ست ساعات أيضا عند الغروب . والزعفرانة آبار بشاطئ البحر ماؤها عذب زلال وليس بينها وبين البحر عشرون ذراعاً .. هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح آجاج . فسبحان اللطيف الخبير القادر على ما يشاء ! .

ومن الغد رحلنا قبل الفجر بنحو ثلاث ساعات ، وبتنا على مسيرة سبع ساعات عند الغروب على غير ماء . ولم نسر ليلاً لمخافة الطريق بسبب (أن) العرب ظهروا هنالك ونهبوا بعض الإبل من الركب لأناس كانوا مسافرين بالركب قاصدين نحو فزان .

ومن الغد سقينا الماء من معطن النعيم قبل العصر ، ويقال له المنعم . وسرنا ونزلنا عند الغروب على مسيرة ست ساعات. والنعيم آبار يحفرها خدمة الركب عند إرادة السقي على شاطئ البحر فينبع منها ماء أبيض مثل اللبن وفي غاية العذوبة .

ومن الغد-وهو يوم الاثنين الواحد والعشرون من رمضان- رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة ست ساعات على غير ماء عند الغروب .

---

(1) بياض في الأصل.

ومن الغد رحلنا قبل الفجر بساعتين ، وبتنا على مسيرة ثمان ساعات ، ونزلنا عند العشاء على غير ماء بعد أن سقينا من الشقة أول النهار ومن غديرين بعد ذلك .وماء الشقة- قال أبو سالم- قبيح آجن ذو حمأة. ومن أمثال الحجاج : " مائة دقة ولا شربة من الشقة " .

ومن الغد رحلنا- قبل الفجر بساعة- وسقى الناس الماء من معطن الحدادية ضحى . وماؤها غير عذب بحجر جبل بعيد عن البحر (وهو بئر في غاية العمق والطول في حجر . وبتنا على غير ماء . ونزلنا عند العشاء على مسيرة تسع ساعات .

ومن الغد رحلنا قبل الفجر بساعة أيضاً ، وسقينا من معطن المناعل (المنعم- المنعل) بعد العصر . وبتنا على مسيرة سبع ساعات . والمنعل- بلام الآخر وربما أبدلت ميما- آبار على شاطئ البحر ماؤها ملح . ومن الغد رحلنا بعد طلوع الفجر وبتنا على غير ماء على مسيرة سبع ساعات . ومن الغد- وهو يوم السبت السادس والعشرون من رمضان- رحلنا بعد صلاة الصبح ، ونزلنا بعد العشاء على مسيرة تسع ساعات بعد أن سقي الناس الماء من المرة عند الغروب ، وهي آبار بحجر ماؤها عذب. وفي هذا اليوم ختمت شرح (شمائل الترمذي) ضحى. ابتدأناها عند خروجنا من محروسة طرابلس .

ومن الغد رحلنا عند طلوع الشمس ونزلنا قبل العصر على مسيرة خمس ساعات وربع ساعة . سقى الركب الماء من معطن الجرد[1] على ساحل البحر . وسبب نزولنا بذلك الوقت ملاقاة شيخ العرب سيف النصر غيث . لقينا هنالك ودفع له الشيخ كتاب مولانا المنصور والصلة التي بعث إليه صحبته ، ودفع له الصلة التي بعثت إليه ابنته حفصة صحبة زوجة مولانا المنصور بالله . وهو رجل مسن غليظ القلب لا يخلو من جفوة ومن شح وبخل ، فإن بنته[2] حفصة

---

[1] كذا- لعلها الجديد أو الجريد.

[2] إذا كان المقصود أن حفصة هذه هي بنت سيف النصر غيث- كما يمكن أن يفهم من العبارة- فإن هذا يعني وجود صلة نسب ومصاهرة بينه وبين أمراء المغرب في ذلك الحين.

بعثت إليه صلةً لها بال تزيد على الألف مثقال وبعثت صحبة ذلك وصيفاً لها يقف على ذلك ويحرسه حتى يدفع إليه ، وطلب منه أن يواسيه بجمل يركبه لكثرة إبله ومتاعه- فلم يجبه لذلك فضلاً عن أن يصل ولد مولانا المنصور بالله المصحوب بالركب بشيء قليل أو جليل .

ومن الغد رحلنا بعد طلوع الشمس ونزلنا قبل الغروب على مسيرة ست ساعات بعد أن مر الركب بماء كثير بمواجن منحوتة في حاجة . ومن الغد ركبنا صباحاً ولقينا ضحى الباي سلومة ابن أخت الباشا يوسف وخليفته ببنغازي في خيل كثيرة ، ورحب وهش وبش . وهو في وسط محلته يريد محاربة سيف النصر لعدم طاعته للباشا يوسف المذكور ، ونزلنا قبل الغروب على مسيرة خمس ساعات . ومن الغد رحلنا قبل طلوع الفجر ونزلنا ببنغازي على مسيرة ثلاث ساعات ، فوصلنا لبنغازي من طرابلس على مسيرة مائة وأربعين ساعة غير كسر.

وبنغازي مدينة ذات بناء متسع غير متقن . وعليها مرسى يؤتى إليها من محروسة طرابلس ومن تونس ومن (بر) الترك بالسلع والفواكه . وأرضها أرض حراثة وماشية ، وأهلها يميلون إلى البادية أكثر من الحضرة . وهي الآن في إيالة حاكم طرابلس ، ومن الغد- وهو يوم الخميس مهل شوال وهو عيد الفطر- أقمنا هناك لقضاء الركب مآربه من الشعير والدقيق والإبل وغير ذلك من مؤونة السفر ، وهو في غاية الغلاء حتى كاد لا يوجد قمح ولا شعير . فألفينا القمح بها على حساب كيل الحضرة الإدريسية بعشرين أوقية للمد ، والشعير بالنصف من ذلك ، إلا أن السمن والزيت واللحم ونحو ذلك موجود ، كثير الوجود على هذه الحالة ألفيناها الآن ، وقد وصفها أبو سالم بغاية الرخاء .

وصلينا صلاة العيد،بعد أن صلى أهل البلد العيد قبلنا ، واجتمع الركب بعد ذلك وصلينا ، وتقدمت للصلاة وخطبت ، وبعد الفراغ ذهب كل واحد لمحله،ومن الغد-وهو يوم الجمعة ثاني شوال-رحلنا عند الشروق ، ونزلنا

الحاجية

بعد العشاء على مسيرة تسع ساعات وربع الساعة بعد أن مررنا بالآبار الطوال عند الغروب على مسيرة سبع ساعات وربع الساعة . ولم يسبق منها ماء لسقي الركب .الماء عند الصباح من بنغازي ومن غدير بعد ذلك.

ومن الغد رحلنا عند طلوع الفجر بعد صلاة الصبح ، ونزلنا على معطن جردس قبل الغروب على مسيرة سبع ساعات ، لكن لا يعتز بالسير في هذه اليوم لكون الدال ضل عن الطريق صباحاً وغاب عن الركب يطلب الطريق . فتفرق شدر مذر وكل من يدعي معرفة الطريق من الحجاج جعل يبدي رأيه في ذلك ، وكلهم يخبطون خبط عشواء ، حتى منَ الله برجل من عرب تلك البلد رد الركب للطريق واستقام سير الناس ، والحمد الله !

ومن الغد سقى الناس الماء من جردس المذكور ما يكفيهم مدة أربعة أيام. ورحلنا عند الشروق ونزلنا قبل العشاء على مسيرة ثمان ساعات وربع الساعة بعد أن وصلنا قصيبة وادي أمالوس – ويقال له سامالوس– بعد العصر على مسيرة سبع ساعات وربع الساعة . وصلينا هنالك العصر وبقينا حتى صلينا المغرب . وهبت في ذلك اليوم ريح عاصفة وقت الضحى ، واشتدت بعد الظهر حتى كاد أن لا يثبت أحد على دابته من فرط هبوبها ، وكابد الناس منها غاية المشقة . واستمرت كذلك إلى بعد صلاة الصبح من الغد وسكنت .

ورحلنا بعد الشروق ونزلنا بعد العشاء الأخيرة على مسيرة عشر ساعات وربع الساعة بعد أن مر خدمة الركب- صباحاً- الموكلون بسقي الماء بمطعن النيام[1] ، وسقى منه بعضهم ، ومر الركب وقت الظهيرة بمعطن حمام ، وسقى منه الماء ، وهو بئر منحوتة في حجر ماؤها عذب . وهبت في ذلك اليوم ريح عاصفة أيضاً وقت الضحى ، واستمرت إلى غروب الشمس ، وهي أشد من الريح الأولى لكونها أتت الركب من ورائه والأولى أتته من أمامه .

---

[1] كذا في الأصل.

الحاجية

ومن الغد رحلنا بعد الشروق ،ومررنا على معطن النخيل- بالتصغير- ويقال بالتكبير وبإبدال النون ميماً- على مسيرة ساعة ونصف الساعة . ومعطن النخيل آبار منحوتة في حجر ماؤها عذب وعليها أثر بناء متهدم. ونزلنا بعد العشاء الأخير على مسافة عشر ساعات .

ومن الغد رحلنا عند الشروق ونزلنا بعد العشاء على مسيرة تسع ساعات وقسمين ، بعد أن تقدم بعض الركب لمعطن التميمي بقصد سقي الماء منه ، وتبعه بقيته فلم يشعر إلا وهو بغدير ماء كثير يسع أكثر من هذا الركب . فسقى البعض من التميمي والبعض من الغدير . على أن من تقدم للتميمي لم يحتج للحفر المعتاد ، بل وجد ماء المطر ملأ محل الحفر، فلم يتعب أحد في شيء من ذلك .. والحمد لله ! ومن نزل على التميمي للسقي نزل على مسيرة ثلاث ساعات وربع الساعة .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ومررنا غدوة على(حبس فرعون) وهو سجن منحوت في حجارة تحت الأرض بابه على وجه الأرض. وهو كبير جداً وبه بئر ماء .هكذا شاع على ألسنة الحجاج أنه (حبس فرعون) كان يسجن به من قاهرة مصر والله أعلم بغيبه . وأنظر : هل هو البيت المنحوت في الحجر الذي ذكر أبو سالم في(رحلته)أو غيره، فإنه وصفه.

ونزلنا بعد العشاء الأخير على مسيرة تسع ساعات وثلث الساعة ، بعد أن سقى الركب الماء في هذا اليوم من أربعة معاطن آخرها (بئر الفرس)- أتاه عند الغروب وماؤه في غاية العذوبة .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعدِ العشاء على مسيرة عشر ساعات غير ربع الساعة،على غير ماء، وجُل الركب لم تشرب دوابه، ومن الغد رحلنا بعد الشروق ومررنا على معطن الخشبي[1]،على مسيرة

---

[1] لعله مطعن الخشبة (أو الخشيبة) الذي أورد ذكره ابن ناصر.

ساعتين وثلث الساعة. وهو آبار متفرقة وجلها فارغ من الماء . ولم يستق منها إلا بعض الركب . وبتنا مسيرة تسع ساعات ونصف الساعة بعد العشاء الأخير على غير ماء . ولم يطبخ أحد عشاءً ولم تشرب بهيمة .

ومن الغد رحلنا بعد الشروق ، وأتينا العقبة ضحى على مسيرة ساعتين وثلث الساعة ومررنا بها في مسيرة سبعة أقسام الساعة . وهي عقبة كؤود ذات حجارة في غاية الصعوبة . ووقفنا بها على قبر عمنا المرابط سيدي يوسف ، رحمة الله عليه . توفي بعد إيابه من الحج سنة سبعين- بموحدة- ومائة- بالإفراد- وألف . ونزلنا بمعطن فرفر المعروف بالدفنة قبل العصر على مسيرة ست ساعات ونصف الساعة ، وبتنا هنالك لاستراحة الركب ولكن الناس عطاش ، وكذلك الدواب . بعد أن كنا أردنا الدخول لمعطن المقرب ، لكن تجنبنا منه لعدم جودة مائه . ولعله من أسماء الأضداد . وفرفر هذا آبار قليلة الماء على ساحل البحر يحفرها خدمة الركب في رمل فينبع منها ماء ملح .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ، ونزلنا بعد العشاء الأخير على مسيرة عشر ساعات غير ثلث الساعة إلى غير ماء . ومن الغد رحلنا بعد الشروق ومررنا على (الشماس) و(الفوار) على مسيرة أربع ساعات. و(الشماس) و(الفوار) معطنان على ساحل البحر منحوتان في حجارة ، ماؤهما يميل إلى الملوحة . وعلى (الشماس) المذكور قصبة صغيرة تعرف بقصبة أولاد علي معدة لخزن الشعير وغيره ، حديثة البناء . ولم يبق أثر البناء القديم الذي كان لهذه النواحي . واشترى الركب من هذه القصبة ما يكفيه من الشعير والتمر المجلوب لها من (سيوة) وذلك في غاية الغلاء .

ومن الغد رحلنا بعد الشروق،ونزلنا بعد العشاء الأخير على مسيرة تسع ساعات على غير ماء،وختم فيه الفقيه المرابط سيدي محمد بن عبدالسلام الناصري ، نجل الشيخ ابن ناصر[1] رضي الله عنه، (صحيح البخاري) بعد

[1] صاحب الرحلة الناصرية.

صلاة العصر عند رأس عقبة هنالك تعرف الآن بـ(مجزرة مولانا عبدالسلام) لموت رجال هنالك عند نزوله بها في سفره . وحضر للختم شيـخ الركب وأخو مولانا المنصور بالله ونجله السعيد وأعيان الركب ، وكنت فيمن حضر بقصد التبرك .

ومن الغد رحلنا بعد الشروق ، ونزلنا بعد العشاء الأخيرة على مسيرة تسع ساعات ونصف الساعة ، بعد أن مررنا بغدير ماء بعد الظهر على مسيرة أربع ساعات غير ثلث الساعة،وهو كبير جداً منحوت في حجارة، وسع الركب كله وفضل منه ما يكفي أكثر منه .

ويقال له (غدير التراب) لاتصال تراب كثير به مدفون فيه مقابر وتجنبنا (معطن البندار) استغنـاء عنه بالغديـر المذكـور لعذوبته ولحيـد المعطن المذكور عن الطريق . وهذا المعطن يقال له (البندار) ويقال له (المدار) [1] . وبات الركب متفرقاً من أجل تأخير بعض المراحل عن الدال . ومررنا بالعقبة الصغرى ليلاً .

ومن الغد رحلنا بعد الشروق ونزلنا بعد العشاء الأخيرة على مسيرة عشر ساعات على غير ماء ، إلا ما هو محمول على ظهور الإبل ، ومن الغد رحلنا بعد الشروق ونزلنا بعد العشاء الأخيرة بمعطن (الشمام) على مسيرة عشر ساعات ونصف الساعة بعد أن صلينا الظهر بمقبرة بها قبر يتبرك به يقال لصاحبه سيدي عبدالرحمن البرقاوي ، و(الشمام) معطن يحفر بساحل البحر ماؤها ملح كريه الرائحة .

ومن الغد رحلنا ضحى ومررنا بـ(خشم العيش). وهناك قبر الأبر شيخ الركب النبوي الحاج علي بن زاكور. ونزلنا بعد العشاء على مسيرة تسع ساعات على غير ماء . ومن الغد رحلنا بعد طلوع الشمس ونزلنا بعد

---

(1) عند ابن ناصر والمنالي : المدور .

العشاء على معطن (عفونة) على مسيرة ثمان ساعات ، و(عفونة) آبار تحفر بالرمل ينبع منها ماء عذب جداً يذكر أنه من رشح النيل . لكن العذب منه ما حفر في الحال . ومن الغد رحلنا قبل الزوال بساعة لفرض الركب أجرة الدال والعلامين وسائر لوازم الركب . وبتنا على مسيرة ثمان ساعات . ومن الغد رحلنا بعد الشروق ونزلنا ليلاً بعد العشاء الأخيرة على مسيرة ثمان ساعات مشرقين على (أبي رواش) وبات الركب متفرقاً فرقاً لمشقة السفر على البساط ويبس البساط ، إذ هو إلا الرمل والحر والعطش والسماء فوق ذلك ، مع ضعف الدواب بطول السفر .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ، ونزلنا أنبابة على النيل ضحىً على مسيرة أربع ساعات .

فجملة ما بين بنغازي وقاهرة مصر مائة ساعة وخمس وثمانون ساعة غير كسر ، وجملة ما بين محروسة طرابلس وقاهرة مصر ثلاثمائة ساعة وخمس وعشرون ساعة غير كسر . قطعنا ذلك في أربعة وأربعين يوماً ما بين أيام السفر والمقام ...

في طريق العودة

ذكر خروجنا من قاهرة مصر متوجهين للمغرب إن شاء الله يا للسلامة والعافية

. . . .

خرجنا من قاهــرة مصر قبل زوال يوم الاثنين التاسع من جمادي الأولى ، ووافق اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر العجمي ، بعد أن زرت سبط الرسول ودخلت لجامع الأزهر بقصد توديع شيخنا سيدي داوود القلعي ، فودعته وودعني ودعا لي بما نرجو من الله قبوله وقرأ حفيظات وغير ذلك مما يناسب توديع المسافر ، فجزاه الله خيراً . ولما فارقته سمعته يؤذّن ورائي . وفي (الرحلة العياشية) ما نصه :

" **لطيفة : أخبرني شيخنا ابن مساهل عن بعض مشائخه أنه قال : إذا أذن خلف مسافر فذلك أمان له حتى يرجع من سفره . وروى في ذلك حديثاً . وقد فعل لنا ذلك- رضي الله عنه- حين ودعنا خارج داره ، فرأينا بركته ولله الحمد** " . انتهى .

وركبنا بحر النيل ونزلنا بعد المغرب بكرداسة بعد مشقة فادحة نلناها بالركوب بالبحر.وأقمنا هنالك سبعة أيام للحوق الحجاج بالركب لتأخرهم بقاهرة مصر ،لقضاء أغراضهم.ورحل الشيخ وبعض الحجاج من كرداسة يوم الاثنين السادس عشر من جمادي الأولى،ونزل بأبي رواش بعد الزوال لانتظار الحجاج يلحقون به وكنت في من خرج معه ، ومن الغد رحلنا بعد

الشروق وبعد أن قدم علينا بقية الحجاج ونزلنا بعد الزوال بين المنصورية وبرقاش وبتنا هنالك . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعد العصر ببطحة بني سليم على مسيرة خمس ساعات ، وبتنا هنالك . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعد العصر بالطرانة على مسيرة خمس ساعات . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعد العصر قرب معطن عفونة على مسيرة خمس ساعات إلا ربعاً ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بمعطن عفونة في الضحى ، على مسيرة ساعتين إلا ربعاً وأقمنا هنالك بقية يومنا . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة خمس ساعات . ومن الغد رحلنا عند الفجر وبتنا قبل (خشم العيش) على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة.

غريبة :

وجد بعض الحجاج في هذا اليوم عظم رأس غزال وبه أثر كتابة . فأتى إليّ لأقرأه ، فألقيت مكتوباً فيه بقلم القدرة : (لا إله إلا الله . محمد رسول الله) . وبتنا هنالك ، وكانت ليلة مطيرة .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ولم ندخل لمعطن (الشمام) استغناءً عنه بالمطر ؛ فإن كل طريق هذا اليوم ماء مطر في غاية العذوبة والسهولة ولله الحمد! ومررنا على (خشيم العيش) وبتنا بعد معطن (الشمام) على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة ولم نمر على المعطن لمحيده عن متن الطريق .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة على ماء المطر ، كفى الركب أجمع ، ولم نمر على معطن (الجميمة)استغناء عنه بماء المطر. ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة أربع ساعات وربع الساعة على غير ماء . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة خمس ساعات إلا ربع الساعة ، بعد أن مررنا نهاراً على البئر المعروفة بـ(بئر عزيز)[1]. وسقى الناس الماء منها . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا

---

[1] الأصل: بئر عزي.

الحاجية

بسطح العقبة الصغرى على ماء المطر بعد أن مررنا نهاراً على بئر (المديور) وحملنا منها الماء .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا نهاراً بغدير ماء كبير ، وبتنا هنالك ، ولم نمر على معطن (البندار) لمحيده عن الطريق . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا قرب (بوكدرة) بعد أن مررنا نهاراً على كثير ماء مطر كفى الركب أجمع . ومن الغد- وهو يوم الثلاثاء مهل جمادى الثانية- رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا بـ(وادي الرمل) . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا بعد (آبار الضعفاء) في ليلة مطيرة ، بعد أن سقينا الماء نهاراً من الآبار المذكورة . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا بأعلى (معطن الجرجوب) ، ولم نرده استغناءً عنه بماء المطر ولمحيده عن الطريق . ومن الغد رحلنا عند الشروق ونزلنا نهاراً بمعطن (الشماس) و(الفوار)لشراء الشعير من قصبة أولاد علي التي هنالك ، وبتنا هنالك .واشتري الشعير منها بحساب أربع أواقٍ لمدّ فاس الإدريسية . ومن الغد رحلنا عند الشروق وبتنا على مسيرة أربع ساعات. وفي هذا اليوم ختمنا سرد(الشمائل الترمذية).كنت ابتدأتها عند خروجنا من قاهرة مصر .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة.ومن الغد رحلنا قبل الشروق وبتنا على مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة،ولم نمر على معطن(المقرب)لمحيده عن الطريق، ولبعده عنها ، استغناءً بماء المطر . وفي هذه الليلة سرقت فرس أنثى من باب خيمة الشيخ . سرقها أحد أولاد علي (الذي) بات ضيفاً وسرقها ليلاً وذهب بها . ومن الغد- وهو يوم الثلاثاء- ثامن جمادي الثانية رحلنا عند الشروق ومررنا على (قصبة الجدانية) وبتنا بأسفل (العقبة الكبرى). ومن الغد- وهو يوم الأربعاء تاسع جمادي الثانية- رحلنا بعد صلاة الصبح ،وصعدنا(العقبة الكبرى)،وبتنا على مسيرة أربع ساعات في ليلة مطيرة .

ومن الغد رحلنا عند الشروق في يوم مطر ، وبتنا قرب (معطن الخشيبي)ولم نرد(معطن الطرفاوي).ومن الغد رحلنا عند الشروق ووردنا (معطن الخشيبي) عند الضحى ، وبتنا على مسيـرة أربع ساعات إلا

ربع الساعة . ومن الغد– وهو يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الثانية– رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا بــ(بئر العزايز) نزلناها قبل الغروب ،وبات جلّ خدمة الركب بغير الركب ، لتقدمهم للبحث عن الماء ، وغفلوا عن البئر المذكورة فلم يهتدوا لها . ومن الغد قدموا صباحاً على الركب .و(بئر العزايز) هذه آبار بإحداها فقط ماء كثير كفى الركب أجمع، وعليه أثر بناء برج متهدم ، وليست معهودة للركب فلذلك لم يهتد إليها خدمة الركب .

غريبة وموعظة :

خسف القمر في هذه الليلة قبل الفجر بنحو ثلث ساعة ، وطال ، ووافق اليوم الثاني والعشرين من شهر نوفمبر العجمي . قالوا : وخسوف القمر في هذا الشهر يدل على كثرة المطر والجليد والبرد الشديد ، ويكون في المدائن جوع وخراب وخوف . والله أعلم بغيبه .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ووردنا بئر ماء بعد الزوال وسع الركب كله ، ولم نرد (بئر الفرس) المتقدم ذكرها لمحيدها عن الطريق . وبتنا على مسيرة أربع ساعات وربع الساعة على غدير ماء مطر . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وجاوزنا (حبس فرعون) المتقدم ، وبتنا هنالك عند قبر يزار صاحبه يقال له (سيدي عثمان) في أرغد عيش وأتم نعمة ، والحمد لله ، بعد أن سقى الركب الماء من غدير ماء مطر ، وسير هذا اليوم كله مرعى للإبل والبهائم لكثرة الكلأ كأنه فصل الربيع . وأتى عرب تلك البلد بالغنم للبيع ، وبالتمر والشعير والإبل والسمن ، ومن احتاج لشيء اشتراه . وغنم تلك البلاد في غاية السمن . وهؤلاء العرب يقال لهم (المسيكات) .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبــح وبتنا قرب (معطن التميمي) في ليلة مطيرة جــداً ، بعد أن مــررنا نهاراً على (عين الغزالة) . ومن الغــد رحلنا بعد الشــروق ، ولم نمــر على (معطن التميمي) استغناءً عنه بماء المطــر ، ألفينــاه في ممــر طريقنــا غــدوة ، وســقى النــاس المــاء منه ، وشــربت البغــال لكونهــا لــم ترد عشية أمــس

تاريخه . وبتنا على مسيرة أربع ساعات إلا ربع الساعة . وهذا اليوم أول مرحلة من السروال . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا بعد غدير ماء كبير في حجر يسع الركب ويقال له (العلبة) ويقال له (عكازة الغوازي) . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعد العصر بمعطن (النخيل) في مطر عظيم ، وبتنا في ليلة مطيرة. ومن الغد رحلنا قبل الشروق في مطر أيضاً ،وبتنا على أربع ساعات وربع الساعة . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا على مسيرة أربع ساعات وربع الساعة ، بعد أن مررنا على (معطن حمام) عند العصر وسقينا منه الماء. ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة مشرفين على (الخروبة) بعد أن مررنا وقت الزوال (بمعطن النيام) وسقى الناس منه الركب الماء . و(النيام) بئر كبيرة منحوتة في حجر بلصق قصيبة هنالك بوادي (أمالوس) ، ولم نمر على قصبته التي مررنا عليها في الذهاب . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا (بنجع عبدالنبي) لنأخذ من عند الباي سلومة الإبل المتروكة عنده ، فوجدناها ماتت إلا أربعة معيبة لا تجدي شيئاً . ومن الغد رحلنا بعد الشروق ونزلنا على مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة . ومن الغد- وهو يوم السبت السادس والعشرون من جمادى الثانية ووافق الخامس من ديسمبر العجمي- رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بـ(بنغازي) قرب نصف الليل .

فجملة ما سرناه من قاهرة مصر إلى (بنغازي) ثنتان وأربعون مرحلة. والسير في هذه الأيام من (التميمي) كله صعب ، لأن الركب يظل النهار يصعد ربوة وينزل وادياً .

وأقمنا بـ(بنغازي) سبعة أيام لقضاء وطر الركب من شراء المؤونة . ورحلنا يوم السبت الثالث من رجب بعد الشروق .وبتنا بعد(غافق) بالغرب على مسيرة أربع ساعات وربع الساعة ، بأرض ذات عقارب ، فإنك لا

تجد حجراً (إلا وتحتها)[1] عقارب أربعة أو ثلاثة أو نحو ذلك ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا بـــ(قمينس) ، ونزلنا بعد العصر لتعرض عرب الزاوية من البداوة للركب،وراموا نهبه محتجّين بما وقع لابن قدورة منهم بمغربنا من قطعه بأمر مولانا المنصور بالله لسعيه بالفساد في تلك البلاد.وعند مبيتنا قدم علينا السيد علي بن بليطان- أحد خدمة الباشا يوسف متولي حكم طرابلس.كان بـــ(بنغازي)لقضاء غرض وتوجه معنا لمحروسة طرابلس،فاستعان به الشيخ-حفظه الله-على ردّ العرب المذكورين عما أرادوه . وأبدى لهم من الحيل حتى سلك الركب بلطف الله .

ومن الغد رحلنا بعد الفجر ونزلنا على مسيرة خمس ساعات إلا ربع الساعة وبتنا في ليلة مطيرة . ومن الغد رحلنا عند الشروق في مطر غزير وبرد شديد وبتنا في ليلة مطيرة على مسيرة أربع ساعات وربع الساعة . ومن الغد رحلنا بعد الشروق في مطر شديد ، ونزلنا على مسيرة نحو من ساعة لشدة المطر ، وأقمنا بقية يومنا وبتنا هنالك . ومن الغد رحلنا عند الشروق ونزلنا على مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة وبتنا هنالك . وسجن مولانا أحد الجمّالين وحلق نصف لحيته ! ومن الغد رحلنا بعد الشروق بسبب ما نشأ من مولانا موسى من الخصام، ونزلنا بعد الغروب على مسيرة أربع ساعات ، وبتنا هنالك في مطر غزير منعنا من السفر غداً . وأقمنا هنالك ذلك اليوم ، وبتنا في مطر غزير . ومن الغد سَفِرنا ضحىً في مطر .

لطيفة ومنقبة :

لما كثر المطر ومنع الركب من السفر ألهم الشيخ -حفظه الله-أن يجمع الحجاجُ صدقةَ الشيخ سيدي أبي العباس السبّتي على أن ييسر الله لهم

---

[1] الأصل: بها.

السفر ويهيئه لهم . فلما جمعوا ما جمعوا وعقدوا النية في ذلك أشرقت الشمس ، وظهر الصحو ، وسَفرِ الركب في حينه ، ببركة الشيخ سيدي أبي العباس السبّي .

وبتنا بعد قصر (جدابية)- ويقال لها (الجابية)- على مسيرة أربع ساعات إلا ربع الساعة . وقصر (جدابية) بناء ضخم تداعى للسقوط ، مبني بحجر منجور ، ولم يبق هنالك إلا أقواس وأثر سور ، وما عدا ذلك سقط وتهدم .

.... ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا عند الغروب على مسيرة أربع ساعات على غير ماء ، ولم يطبخ أحد تلك الليلة عشاءً ، ولم تشرب بهائم ولا غير ذلك ، لعدم وجود الماء لكون الركب لم يعبأ بالماء الموجود أول النهار اتكالاً على عادة هذه الأيام من كثرة المياه في كل محل حتى أنه لم يحمل في هذه الأيام من كثرته . ثم إنه تعذر وجوده في غير صبيحة هذا اليوم . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ومررنا بالبئر المعروفة بـــ(بئر الهلالي) ، ولم يوجد به ماء ، وحوله قبر يقال له (القبر المرعي)[1] ووجدنا غدير ماء مطر وسع الركب كله وكأنه لم ينقص منه شيء ، وسقى الناس منه ما يكفيهم وشربت البهائم والحمد لله حق حمده ! وبتنا على مسيرة أربع ساعات ، ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا على مسيرة أربع ساعات على غير ماء . ومن الغد رحلنا بعد الفجر وبتنا (بمعطن المناعل) وسقى الناس الماء ما يكفيهم نحواً من يومين . ومن الغد رحلنا بعد الشروق ومررنا على (معطن سريغن)[2] أول النهار ولم ننزله استغناءً عنه بماء (المناعل) ، وبتنا على مسيرة أربع ساعات . ومن الغد رحلنا عند الفجر وبتنا على مسيرة أربع ساعات بأرض (سرت) بعد أن خرجنا من (برقة) وقت الظهر . قال أبو سالم في (رحلته) :

---

(1) كذا في الأصل. فإن كانت ثمة صلة بين (بئر الهلالي) وهذا القبر في تجريدة بني هلال المعروفة فالصواب هو (قبر مرعي) نسبة إلى (مرعي) أحد أبطال الملحمة الشعبية عن بني هلال.

(2) عند ابن ناصر: سرغين.

" وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد ، ذات مزارع كثيرة بالبعل ، وعربها أهل رفاهية ، إلا أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم . إلا أن أمرهم كاد ينتظم في هذه الأواخر على يد أميرهم (سيد روحه) " .

انتهى كلام أبي سالم . وهم الآن في حكم يوسف صاحب ولاية طرابلس فبلادهم- بسببه- بلاد هناء وعافية .

ومن الغد رحلنا عند الفجر ، وبتنا قرب (بئر الحدادية) على غير ماء، ولم يوجد عند جلّ الركب . ومن الغد رحلنا عند الفجر ومررنا على (بئر الحدادية) عند الشروق ولم نرد ماءها لقبحه ولعدم عذوبته واستغناءً عنها بغدير ماء مطر ألفيناه بعدها بالغرب وسع الركب كله وبقي على حاله كأنه لم ينقص منه شيء ، ويسمى بـــ(المحيرقة) . وبتنا على مسيرة أربع ساعات . ومن الغد رحلنا عند الفجر ، ومررنا قرب الزوال على غدير ماء مطر على شاطئ البحر يقال له (بوقدالة) وماؤه بين العذوبة وضدها .

غريبة :

(أخرج)من البحر عشية نزولنا حوت عظيم له جلد كجلد وحوش البرّ، وله ذنب كذنب الحوت المتعارف ، ولا أذن له ، وله يدان صغيرتان قصيرتان ، وحبس[1] . وسلخ جلده وشق على بطنه فوجد باطنه كباطن البقر ولحمه أسود وجله شحم . وفرق على سائر الركب ، لكن لا لذة في طعمه . وكنت ممن لم يأكل منه .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ومررنا ضحىً على غدير ماء مطر عذب حجر يقال له(المهراسي)وسع الركب ، ومررنا قرب الزوال على (الشقة) فلم نجد بها ماءً،وبتنا على مسيرة أربع ساعات وربع الساعة بعد أن مررنا عشيةً على معدن رخام .ومن الغد رحلنا قبل الفجر وسقينا نهاراً من غدير ماء وبتنا(بمعطن أحمر)على شاطئ البحر على مسيرة خمس

---

[1] هذه هي القراءة الممكنة للكلمة في الأصل.

ساعات ، ولم نرده استغناءً عنه بالماء المذكور . ومن الغد- وهو يوم الخميس الثاني والعشرون من رجب- رحلنا بعد صلاة الصبح بعد أن رحل مولانا موسى في أصحابه صحبة الدال وأحد العلاّمين قبل الفجر ، يريد التقدم لمحروسة طرابلس لضجره وقنطه وطول السفر.

ولم نمر على (معطن عسيلة) ولا على (معطن النعيم) بل إنما دخل إليه خدمة الركب وسقوا منه الماء ما يكفيهم إلى (الزعفران) . وبتنا على مسيرة خمس ساعات إلا ربع الساعة . ومن الغد رحلنا عند الفجر، وبتنا على مسيرة خمس ساعات وثلث الساعة . ومن الغد رحلنا عند الفجر وبتنا على مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة ولم ندخل لمعطنِ (الزعفرانِ) لمحيده عن متن الطريق ، ولم نرد (البشيطية)[1] ، بل بقيا معاً عن يميننا ، وإنما وردنا غدير ماء مطر ، ومررنا بنجع (ورفلة) و(أولاد سليمان) واشترى الركب منهم التمر بأبخس ثمن والغنم والإبل والشعير . وقدم علينا سيف النصر- شيخ العِرب- في قليل من الخيل وبات بالركب ، ولم يقدم للركب بما يساوي فلساً ، على عادته ، إذ هو من أشد الناس شحاً .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا علىٍ مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة ، بعد أن سقى خدمة الركب نهاراً الماء من بئر (شرف حسان)- ويقال لها (دور حسان)- وهو ماجل منقول في حجر يجتمع فيه المطر، فإذا أفرغ المجتمع بقي محله يرشح بماء قليل يجم في قعره يبل به الظمآن فمه . وبإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبق إلا رسومها تسمى فيما مضى(قصور حسان)إضافةً إلى بانيها ، وكان عاملاً لبني أمية لما نقض أهل أفريقِية العهد في آخر خلافة بني مروان . بنى هنالك قصوراً وأقام فيها نحواً من ثلاث سنين حتى افتتحها بعد ذلك حسبما ما ذكر من أرخ فتوح أفريقية ، وسمى المكان باسمه. ذكر هذا أبو سالم في (رحلته) .

---

[1] كذا- ولعلها (الشبيكة) عند ابن ناصر.

ومن الغد رحلنا عند الشروق وبتنا بطرف (المخاضة)[1] على مسيرة خمس ساعات إلا ثلث الساعة على غير ماء . ومن الغد رحلنا عند الشروق وبتنا على مسيرة خمس ساعات إلا ربع الساعة على غير ما . ومن الغد- وهو يوم الخميس التاسع والعشرون من رجب على حسابنا- رحلنا قرب الشروق ، وبتنا على مسيرة خمس ساعات قرب (العريعر) بعد أن سقى الركب الماء من (السميرة) ومن غيرها . ومن الغد- وهو يوم الجمعة مهلّ شعبان لخروج رجب بالنقص على حسابنا وهو اليوم الثامن من شهر يناير العجمي- رحلنا قرب الشروق ونزلنا بمصراتة زاوية الشيخ زروق عند الظهر على مسيرة خمس ساعات . ولم ننزل بالركب إلى أن دخلنا منه يوم الأحد ثالث شعبان بعد الشروق ، بعد أن عدنا لزيارته في جملة الركب وبتنا على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا قرب وادي (الحمى) على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وسقينا الماء من وادي (الحمى) عند الشروق ، ومررنا نهاراً على (مدينة الرخام)[2] وبتنا على مسيرة خمس ساعات إلا ربع الساعة .

لطيفة :

مررنا نهاراً بضريح الولي سيدي بوعصيدة ، وتعرض لنا أهل تلك الزاوية بقصاع كبيرة من العصيدة يسمونها(في)تلك النواحي(البازينة)-بباء موحدة وزاي بعد الألف- أزيد من أربعين قصعة.وذلك دأبهم مع الركب .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ، وبتنا على مسيرة خمس ساعات بسانية بعد ضريح سيدي عطية . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ، وبتنا بوادي (المسيد)

---

[1] لعلها التي يسميها ابن ناصر (المخيطة).

[2] الواضح أن المقصود مدينة لبدة.

على مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة . ومن الغد رحلنا بعد الشروق،وبتنا(بتاجوراء)على مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة. ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بمحروسة طرابلس ضحى .

فجملة ما بين بنغـــازي ومحروسة طـــرابلس خمـــس وثـــلاثون مرحلة . وجملة ما بين قاهرة مصر ومحروسة طرابلس سبع وسبعون مرحلة- بموحدة فيهما .

ذكر نزولنا بمحروسة طرابلس في الإياب

نزلنا بمحروسة طرابلس وقت الضحى من يوم السبت ، التاسع من شعبانٍ وهو اليوم السادس عشر من شهر يناير العجمي . ولم نر مطراً أصلاً من يوم عقدنا عهدنا مع الشيخ أبي العباس السبّي- رضي الله عنه- إلى أن نزلنا بطرابلس في اليوم المذكور بمحل النزول المعتاد من (الزرارية) وأنيخت الإبل وحط عنها الأثقال ، وفرغ الناس من علائق السفر ونزل كل واحد بالمحل الذي نزل به وجمع متاعه وحوائجه ، فشرع المطر الوابل في النزول . وهذه منقبة عظيمة وبركة كبيرة ظاهرة للشيخ سيدي أبي العباس السبِّي ، وما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر! .

ولما أقلع المطر وخرج الصحو بعد يومين ذهبت لمحروسة طرابلس ، وزرت ضريح الشيخ سيدي عبدالوهاب،وتبركت بأثره.ولقيت هناك العلامة سيدي محمد الرمشاني بالمسجد الجديد ، مسجد الباشا المتقدم ذكره ، ووجدته يدرس (موطأ) الإمام مالك- رضي الله عنه- بعد صلاة العصر ، وهو يقرأ قراءة حسنة تدل على مشاركته في العلوم .

غريبة : سألت عن العلامة سيدي محمد الصقلاني المتقدم ذكره ، الذي وجدناه يقرأ تفسير القرآن العزيز بهذا المسجد في ذهابنا ، فأخبرنا أنه توفي مقتولاً من قبل الباشا يوسف بسبب فحش رمي به .

لطيفة : صلينا صلاة بمسجد الباشا فخطب خطيب المسجد سيدي محمد المتقدم ذكره خطبة بديعة ضمنها فضل الذهاب للحج والإياب منه وذكر فيها الأماكن الشريفة ، وذلك لقدوم ركبنا على البلد وعزم الركب الطرابلسي للحج ، فقد راعى في خطبته مقتضيات الأحوال ....

ولما قضيت الصلاة وتفرق من بالمسجد من المصلين لقيت سيدي محمد الرمشاني المذكور فسلم علي ورحب بي وهش وبش وأظهر من السرور ما ناسب الحال . ومن جملة ما أتحفنا به في الوقت أن أوقفنا على جزء من مصحف صغير الجرم ، عرضه أوسع من طوله ، نحو من ثلاثة أحزاب من سورة (الكهف) بخط كوفي ، أخبرنا أنه بخط سيدنا عثمان بن عفان- رضي الله عنه- فأخذته من يده وجعلت أمسح به عيني وسائر جسدي قصداً للتبرك بخط هذا السيد الجليل ، زيادة على أنه المصحف الكريم . وجعلت أتتبع أوراقه ، ورقة ورقة ، بقصد التبرك ، فألفيت بأوله بخط كوفي : " كتبه عثمان بن عفان " - فالله الحمد ! .

لطيفة : من أحسن ما رأيت بطرابلس أنهم يعتنون أشد اعتناء بليلة النصف من شعبان ، يعدونها من أحفل المواسم ويوقدون بها المصابيح بالمساجد ويحيون ليلهم بالذكر والصلاة والتلاوة ، فجزاهم الله أحسن الجزاء . كيف لا وقد قال مولانا فيها وجلَّ من قال : " فيها يفرق كلُّ أمرٍ حكيمٍ . أمراً من عندنا " . وفضلها لم يطرأ عليه نكــر نكير . وأما إنكارُ من أنكر من العلماء صلوات وردت منصوصة ، كصلاة ليلة النصف من شعبان وصلاة وداع رمضان وليلة أول خميس من رجب ، فإنكاره إنما هو لكيفية مخصوصة في الصلاة . فليراجِع في محله .

وفي يوم الأربعاء موفي عشرين يوما من شعبان قدمت مركب من بنغازي بها حوائج وأمتعة لبعض أهل الركب كانوا خففوا بها بعض ثقلهم لما حلوا ببنغازي . ولما وصلوا المحروسة طرابلس ولم يجدوا بها أثرا تشوش بالهم منها وخافوا عليها ، حيث أبطأ قدومها . فلما وصلت إليهم

في اليوم المذكور سروا بها غاية السرور . وأما مرسى محروسة طرابلس فقلما يمر يوم واحد لا تدخل لها مركب غنيمة فتحاً من الله على حاكمها الباشا يوسف . فقد سعدت به تلك البلاد كلها ، وهو قائم بها أتم قيام ، لا شغلٍ له إلا أن يسعى في جلب المنافع لها ودفع المضار عنها، فجزاه الله خيراً ، عكس من كان متولياً قبله .

لطيفة :والد الباشا يوسف هذا هو الذي كان متولياً بمحروسة طرابلس، وله ولدان :أحمد ويوسف هذا . ثم إن رجلاً يقال له علي باشا المعروف الآن بـــ(برغول) زور كتاباً على لسان أهل طرابلس وضمنه أن وجاق طرابلس لا حاكم له ، وأن الحاكم الذي به لا قدرة له على شيء . وقد خشـــوا على المدينة المذكـــورة أن يستولي عليها كفـــار النصارى - دمرهم الله- وأنهم يطلبون أن (يتولى أمرها)[1] علي باشا المذكور . وذهب بالكتاب بنفسه لاسطنبول ، لأن له يداً هناك من بعض دائرته ، ودفع له الكتاب المذكور فـــ(وافقه) في ذلك وولاه وجاق طرابلس وكتب له بذلك وبعثه وبعث(معه) من يعضده في ذلك وأتى محروسة طرابلس ، فدخل إليه مولىً بها ، وخرج منها علي والد الباشا يوسف وولداه وأهله وحواشيه في البحر ، وذهب الجميع لمحروسةِ تونس ، إلا يوسف هذا نزل بمحلة جمعها من نواحي البلد بالزرارية مقابلاً للبلد وأظهر أنه نائب والده في ذلك وخليفته ، وجعل يحارب علي باشا القادم على البلد المذكورة والآخر يقابله بمثل ذلك . فلما فرغ ما عند يوسف من البارود وآلة الحرب والمال أظهر حيلة لمحلته بأن والده كتب له أن له مالاً بقابس فليذهب إليه بمحلته ويأخذه ويفرقه على المحلة ويرجع لمحاربة علي باشا . فذهبوا لقابس .

فلما وصلوا إليها أظهر حيلة أخرى؛ إن المال بعث إليه والده المذكور وأخذه بعد أن(أرسل)إليه ذلك،وأنه كتب إليه ليقدم عليه لمحروسة تونس في جملة الحملة التي بيده،وهناك يدفع إليه كل ما يحتاج إليه وتحتاج له المحلة ويمدهم بمحلة أخرى ليقدموا على محاربة علي باشا المذكور . فامتثلوا

---

(1) الكلمات ما بين قوسين مطموسة في الأصل وضعها المحقق تخميناً.

لأمره وذهبوا معه إلى أن وصلوا لمحروسة تونس ، فبينما هم كذلك إذ قدم الخبر على حمودة باشا - متولي حكم تونس ونواحيها- بأن علي باشا استولى على (جربة)- وهي في إيالة حكم تونس وعمالته ، فاهتم بذلك حمودة باشا واغتم به . فتوجه إليه يوسف هذا وقال له : " لا تهتم بهذا الأمر ولا يغمك (برغول) وجهني لمحاربته وجهزني وأنا آخذ جربة- إن شاء الله- وكذلك (آخذ) محروسة طرابلس " . فوجهه بمحلة عظيمة مشتملة على الخيل والرجل (وكذلك) من كل ما يحتاج إليه من آلة الحرب والمدافع وغير ذلك (وأمر) بأن يوجه إليه مصحوبا معه مراكب بالبحر يستعين بها على ذلك . فتوجه من عنده لناحية طرابلس .

فلما قارب تلك النواحي جعل يفرقِ محلته بالطرقات ، وذهب في نحو ألف من الخيل حتيٍ أتى (جربة) ليلاً ، وعبر بخيله في المراكب لناحيِة (جربة) وتسور ليلاً على القصبة التي بها حاكم(جربة) من قبل علي باشا، وقتل بعض حراسها حتى وصل لحصن الحاكم وقتله . وجلس موضعه . فلما(أصبح) الصباح أجلس أحد أصحابه من أهل محلتّه بالقصبة حاكماً (على)باب المدينة وأعلنوا نصر حمودة باشا ، ووجه إليه لمحروسة تونس رأس الحاكم الذي قتل. فلما مثل بين يديه فرح بذلك غاية وسر،(وأمر) كل من في إيالته من الحاضرين أن يصلوا من قدم بالرأس المذكور. (وذهب) يوسف في المحلة المذكورة لمحروسة طرابلس ونزل عليها،وأمر المراكب المصحوبة معه أن يخرجوا بنفس نزوله عليها أربعين (مدفعاً)بالبحر بغتة. فلما أخرجوا المدافع تابعهم بإخراج مثلها في البر . وبالمحاربة . فدهش أهل البلدة غاية الدهش ولحقهم من الرعب ما (لحقهم) ، فلما توجهوا للمحلة من ناحية سور المدينة وأبراجها ونظروا إليها (ووجدوا) ما لا يقدرون على مقابلته تجلدوا وجعلوا يقاتلونهم (بالمجانيق) .

فلما مضت أيامٍ وهم على هذه الحال وجه يوسف هذا نحواً من خمسة وعشرين رجلاً ليلاً للباب الصغرى النافذة للحصار المعروفة (بباب الغدر) ووجه معهم الزفت والقطران والزيت ، وحنكوها[1] ليلاً وأهل البلد لا

---

[1] كذا في الأصل- ولعله يعني (دهنوها).

يشعرون ،وأوقدوا بها ناراً ودخلوا. فما أتوا للباب الثانية لم يقدروا منها على شيء . فتوضأ كل واحد منهم وراءها نكاية وخرجوا لمحلتهم . فلما أصبح الحال وجدوا الباب الأولى محرقة والرجال دخلوا إلى الباب الثانية فاشتد دهشهم ورعبهم فلم (يسع) علي باشا المذكور إلا الهروب والفرار من البلد فجمع متاعه الذي به وشمر (عن) ساعد الجد في الهروب ، وركب البحر ليلاً في عياله وأقاربه صحبة متاعه وهرب ، ولم يشعر به أحد من أهل البلد من أهل المحلة . فلما أصبح الحال ألفيت باب قبته مفتوحة ، فدخل إليها بعض خدمه فلم (يجدوه) هنالك . فشعر بذلك بعض اليهود فتسور السور ونزل (إلى المحلة) وأخبر يوسف المذكور ، فلم يصدقه وخشي أن تكون حيلة وخديعة ومكيدة . فرد اليهودي ووجه جملة من أصحابه ليلاً وتسوروا (سورها) فألفوا بعض الحراس نائمين فأوثقوهم بالحبال وأجلسوا (غيرهم) ، ومضوا فألفوا حراساً آخرين فقتلوهم ودخلوا للحصار (بمحل المملكة) فلم يجدوا أحداً هناك ، ولم يجدوا متاعاً أصلاً إلا الفرش الثقيلة بمحل المملكة . فرجعوا ونزلوا وأخبروا بذلك يوسف فصدقهم وحينئذ رام دخول (البلد) واستباحة دمائهم[1] وأموالهم ، فأعلن أهل البلد نصره وطلبوا منه أن يعفيهم وادعوا أنهم مكرهون في ما فعلوا . فعفا عنهم ودخل البلد ووطنها ، وكتب إلى والده بمحروسة تونس . فقدم عليه والده وأخوه أحمد ومن أضيف إليهما . فلما قدموا عليه البلد ظهر والده المذكور بفرمان- وهو كتاب من عند حاكم تونس- بأن أحمد المذكور يكون باشا البلد ويوسف يكون الباي . والبي- في عرفهم- أحط (منزلة) من الباشا وتحت حكمه وكلمته. فأسرها يوسف في نفسه ،ولم يبدها لهم- طلباً لرضا والده .

وبقوا على هذه الحالة إلى أن توفى والدهما (الباشا) المذكور ، فحضر يوسف المذكور بين يدي أخيه أحمد وقال له :"الأمر لك ، وكلامك هو

---

(1) دماء أهل البلد.

المسموع لكونك أنت الباشا ، وأما كلامي فلا يسمع . فأمر أهلنا وأقاربنا أن ينزلوا (للمنشية) خارج البلد (بالزرارية) ويسكنوا هنالك، ليتوسع علينا الحال ويبعدوا عنا لئلا يلحقنا كلام ولا غيره من هؤلاء الأقارب . وإن أمرتهم أنا بهذا الأمر لا يسمعوا كلامي"فأجابه بأن" قد أصبت الصواب لكن سأذهب (للمنشية) وأنظرها وأعيّن لكل واحد منهم منزلاً يليق به ". فلما خرج أحمد من محروسة طرابلس متوجها (للمنشية) بهذا القصد غلق يوسف باب المدينة ورام محاربته وحلف له لئن توجه إليه ليقتله . فمضى بسلام لمحروسة تونس في جملة من أصحابه، ووطنها،وهو بها الآن تحت إيالة حمودة .وأما علي باشا المعروف الآن بـــ(برغول) ، فقد توجه لقاهرة مصر بمتاعه، ووطنها، ودخل تحت إيالة مراد باي وإبراهيم باي ، وجعل يواصلهما بمتاعه .

وطرابلس الآن- عند أهل هذه النواحي- في غاية الرخاء ؛ فإن القمح بها بنحو عشرين أوقية للنوبية . والنوبية بها خمسة أمداد كبيرة من مدنا الكبير الفاسي . والشعير عشر أواقٍ قديمة للنوبية . وبها كثير من الخضر والفاكهة والسمن والزيت والسلع ، إلا أنها لم يزل بها بعض الخراب ، فإلى الآن لم يعتن ببنائها وإصلاح ما تهدم منها .

وبقى البال منا متشوشاً من جهة المغرب في غاية الاشتياق لما يرد علينا من خبر أهلنا وبلادنا وأصحابنا ، ولم نجد لذلك سبيلاً . وكنا نظن أنا نجد خبر المغرب بمحروسة طرابلس ، فقد كان كتب مولانا أمير المؤمنين- أيده الله- لشيخ الركب صحبة رقاص البحر لما نزلنا بقاهرة مصر من الحجاز أنه يبعث مركباً لطرابلس من المغرب بها مؤن الركب وما يحتاج إليه . ثم إنا لما حللنا بها لم نشم رائحة المغرب . فنطلب المولى سبحان أن يسمعنا خيراً وأن ينزل بنا ما يسرنا في ديننا ودنيانا ، إنه على ما يشاء قدير !

غريبة : لمّا لم يظهر خبر من جهة المغرب، وضاق الناس(صدراً)من ذلك ، عقد الحجاج عقدة مع الشيخ سيدي أبي العباس السبتي- رضي الله

عنه- أن لا تأتي الجمعة الموالية إلا وخبر المغرب عندهم. فلما أتت الجمعة الموالية لهم وصلى الناس الجمعة دخلت مركب موسى محروسة طرابلس. بعثها مولانا المنصور بالله من المغرب(للباشا)يوسف وبها خديمه ولد يلونتكان ، بعثه إليه بهدية بشهر ذي الحجة السالف عن تاريخه . وأخبر أن مولانا المنصور بالله ظفر (بحمراء مراكش) ودخلها، وقد تركه بها ، ومهد الله له ، وسكنت الفتن ،(وخذل)الله الفئة الباغية- والحمد لله حق حمده ! فأنظر بركة هذا الشيخ الجليل . وقدوم هذا المركب علينا كان في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان المبارك !

لطيفة : سفر الركب الطرابلسي من محروسة طرابلس يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر شعبان المبارك ،عام اثني عشر ومائتين وألف. حفظهم الله ، وبلغهم آمالهم ، وييسر أمرهم ذهاباً وإياباً .

لطيفة : وقفت بمحروسة طرابلس- صانها الله-على نسخة من البخاري في سفر واحد ، في نحو من ستة عشر كراسة . وفي كل ورقة خمسون سطراً من كل جهة.وكلها مكتوبة بالسواد لا حمرة بها أصلاً .[1]

أوقفني على هذه النسخة المباركة محبنا الفقيه الناسك ذو الأخلاق الحسنة سيدي الحاج أحمد بوطبل. وذكر لي-.حفظه الله- أنه اشتراها من اسطنبول وحيث اشتراها اجتمع علماؤها وقالوا له: "أخليت اسطنبول!".

وأوقفني سيدي الحاج أحمد المذكور أيضاً على(اختصار الفتوحات المكية)للشيخ سيدي عبدالوهاب الشعراني، وأجزاء أحدها بخطه- رضي الله عنه وعفا عنه.وأوقفني- حفظه الله وجزاه عني خيراً- على خط الفخر الرازي.وتبركت بالجميع ومسحت به سائر جسدي.حقق الله آمالنا. ووددت أن لو لقيته عند قدومنا على محروسة طرابلس لأشفى بعض الغليل بالكتب

---

(1) الفقرة المحذوفة وصف للنسخة خارج عن سياق الرحلة.

التي عنده ، فإن له ولوعاً بالكتب . ولم يقض الله بملاقاته إلا عند عزمنا على السفر من طرابلس ، والله يفعل ما يشاء .

ومنذ نزلنا بمحروسة طرابلس والحجاج مشتغلون بقضاء مآرب السفر. من شراء الإبل وتجديد المؤونة وغير ذلك من لوازم السفر . لكن تفرق رأيهم فمنهم من رأى السفر على محروسة تونس وترك المرور على طريق الجريد المعهودة للحجاج ، خوفاً من الجدب وقلة الأمن وغير ذلك مما ألفي به في الذهاب ومال لهذا أخو المولى المنصور . ومنهم من رأى السفر على طريق الجريد خوفاً من المولى المنصور ، لأن المرور على محروسة تونس ليس بمعهود عند الركب النبوي ولا إذن بذلك عند المولى المنصور ، ولأن الجدب والغلا أمر مغيب في هذه السنة، وهذه الطريق أقرب من طريق تونس . ومال لهذا شيخ الركب بل ربما رام جبر الركب عليه . ونشأ من ذلك كثرة القيل والقال وكل يظهر خلال ما يبطن . وتشوش من ذلك حال الناس والتبس عليهم أمرهم ، لا سيما وقد سمعوا بأن مولانا مسلمة بناحية الجزائر . فكثر من ذلك تشويشهم خوفا من ملاقاته ومن الكلام معه . فأفضى الحال بذلك إلى حمل أخي المولى المنصور على السفر في البحر واجتناب الطريقين ، وكبر ذلك على (الحجاج) ودهشوا منه ؛ إذ سفر الركب بالبحر لم تجرِ به عادة . فتلطّف (بعض القوم) مع أخي المولى المنصور وأفشوا له الكلام حتى رجع عن السفر بالبحر و(اختار) السفر عن طريق محروسة تونس لما ذكر ، ولنبل تلك البلاد (ونبل) أمرائها ، بخلاف طريق الجريد فلا أمير لها أصلاً وإنما هناك (ليس) إلا حكّام من غير مسمّى . فاجتمعت كلمتهم على السفر عليها (إذ أنه) لأخف الضررين . وأشهدوا على أنفسهم بذلك .

وخرجنا من محروسة طرابلس يوم الأحد الثامن من رمضان المعظم . وبتنا بـ(الزنزور) . وقد أصابني في هذا اليوم الوجع المصحوب بـ(؟) حتى يئست من الحياة وعافاني الله منه بعد نزولنا .

الحاجية

ومن الغد رحلنا (   )[1] وأثقال الركب عند الشروق ، وبقيت البغال بالدار في انتظار الفقيه سيدي محمد بن عبدالسلام الناصري ، لتأخره بمحروسة طرابلس لمالٍ له . فلم ترحل البغال إلا قرب الزوال حيث لم يظهر له خبر . وبتنا بــ(الزاويَّة الغربية) على مسيرة أربع ساعات إلا ربع الساعة . ومن الغد أقمنا هنالك في انتظار الفقيه المذكور . وبتنا هنالك ولم يظهر له خبر أصلاً . ومن الغد رحلت الإبل بعد صلاة الصبح وبقيت البغال في انتظار الفقيه المذكور ، فلم نلبث إلا قليلاً إلا والفقيه المذكور قادم علينا بعد الشروق صحبة رجلين من المرابطين أولاد (بومريم) تأنيساً له ، يقال لأحدهما السيد محمد بن عبدالمجيد وللآخر السيد محمد القنطري بن محمد أيضاً ، وصحبة الحاج أحمد بو طبل صاحب نسخة البخاري المذكورة . فاجتمع شمل الركبِ ، إذ لا ينبغي إهمال مثل الفقيه المذكور وعدم الاعتناء بشأنه ؛ إذ هو نَجْل السنة المطهرة- بارك الله فيهم وفي زاويتهم الناصرية- ولاشتغاله في نفسه بما يعنيه وعدم فضوله ودخوله في ما لا مدخل له فيه . أخبرنا أنه لم يخرج من طرابلس إلا أمس تاريخه بعد صلاة التراويح بعد العشاء ، لكون إبله لم تقدم عليه من مرعاها الذي كانت به إلا عند المغرب . وهو من وقت سير الركب من طرابلس وهو ينتظرها .

ومررنا على(صواغة)[2]على برج (العلاقة) وبتنا مسامتين للمليتة قبل الغروب على مسيرة خمس ساعات . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبتنا بعد (الزوارات العامرة) على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة . وعلى الزوارات المذكورة نخيل وبناء غير متقن ، وبها خراب وغيره . وعرب تلك النواحي يقال لهم النوايل[3] وهم معروفون بالنهب للحجيج . وكفى الله أمرهم أهل الركب فلم يدخل منهم واحد هنالك ، لهروبهم من

---

(1) كلمة غير مقروءة.

(2) كذا في الأصل، ولعله يقصد (زواغة).

(3) الأصل: التنايل.

تلك النواحي ، لأنهم امتنعوا عن الدخول في بيعة الباشا يوسف ، ففروا من إيالته وعمالته .

ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وسقى الناس ضحى من (الزوارات الخالية) ما يكفيهم إلى (النبش) وبتنا (بالمقطع) على مسيرة خمس ساعات وثلث الساعة . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ، وشربت البغال من آبار (بن قردان) بعد العصر ، وجاوزناها بنصف ساعة ، وبتنا على مسيرة ست ساعات إلا ربع الساعة وماء آبار (بن قردان) غير عذب . مغير اللون . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وسقى الركب الماء ضُحى من غدير ماء يقال له (وادي فسى) وبتنا (بالنبش) على مسيرة ست ساعات ، ولم نسق ماء من (بوجمل) . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ومررنا ضحى بوادي (السمارة) وبتنا قرب سيدي مخلوف . ونزلنا بعد العصر لأجل أن الدال ضل عن الطريق على مسيرة ست ساعات . ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ومررنا على وادي (الحلوف) بعد الشروق . وهذا الوادي يكاد أن لا ينقطع منه الخنزير ، ومررنا على رجال العرام وبتنا بسيدي سلام بوغرارة المتقدم ذكره على مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة في أرغد عيش ، فقد أتى أهل تلك البلاد بالغنم للبيع ، وبالسمن والشعير ووجدنا الزرع عندهم في السبل ، في الثالث والعشرين من أبريل العجمي .

* * *

الفهارس

عبد الوهاب الدوشي

فهرس الأعلام

اللقاني: 122

فهرس الأماكن

المراجع

ابن غلبون:(تحقيق طاهر الزاوي): التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار- مكتبة النور- طبعة (2) 1967.

التازي ،عبدالهادي: ليبيا لدى ال "ة المغاربة- مجلة المجمع العلمي العراقي- مجلد (9)- 1972.

التليسي ، خليفة: معجم معارك الجهاد في ليبيا- دار الثقافة- بيروت سنة 1972.

تولى ، مس : عشرة أعوام في طرابلس (ترجمة: عبدالجليل الطاهر) منشورات الجامعة الليبية 1967.

ديلاشيلا ، باولو : أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة في عام 1817م. (ترجمة د. الهادي أبو لقمة). دار الفكر؛ طرابلس 1968.

الزاوي ، الطاهر أحمد: ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي- دار الفتح بيروت 1970

ـ : أعلام ليبيا – مكتبة الفرجاني 1971

ـ: معجم البلدان الليبية – مكتبة النور 1968

روسي ، إيتوري : طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا (ترجمة خليفة التليسي). مؤسسة الثقافة الليبية. طرابلس 1969.

راي ، ادوارد : المغرب العربي (ترجمة مصطفى محمد جودة) مكتبة الفكر.

عباس ، إحسان : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري. دار ليبيا- بنغازي 1967.

ـ **ومحمد يوسف نجم**: ليبيا في كتب التاريخ والسير- دار ليبيا 1968

ـ : ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات، دار ليبيا 1968

الحاجية

عمر ، دكتور أحمد مختار : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي. منشورات الجامعة الليبية. كلية التربية. **1971**

النائب ، أحمد الأنصاري: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان (تحقيق على مصطفى المصراتي). المكتب التجاري، بيروت **1963.**

– : المنهل العذب (تحقيق الطاهر الزاوي). مطبعة الاستقامة. القاهرة**1961.**

ناجي ، محمود: تاريخ طرابلس الغرب (ترجمة عبدالسلام أدهم ومحمد الأسطى). منشورات الجامعة الليبية. كلية الآداب **1970.**

موري ، إتليو: الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا (ترجمة خليفة التليسي). مكتبة الفرجاني. طرابلس **1971.**

المحتـــوى


دار المنار للطباعة والنشر
مصراتة 41 ش سعدون السويحلي ✆ 051 2621725

الناشــــر
مجمع اللغة العربيـة ـ طرابلس
شارع البلديـة ـ ص . ب / 551
هـ / 4440126

